وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾

التفسير: أي لولا أنه إذا حل بهم العذاب جراء سيئاتهم قالوا ربنا لِمَ لم تبعث إلينا رسولاً فنتبع أحكامك ونكون من المؤمنين بدلاً من أن نذلّ ونخزى، لعذّبناهم دون أن نرسل إليهم رسولا. علمًا أن جملة "لعذّبناهم دون أن نرسل إليهم رسولا" محذوفةٌ هنا، وهنا أمثلة كثيرة كهذه في القرآن الكريم حيث يُحذف جواب الجملة السابقة.

لقد بين الله تعالى هنا أنه لو لم يبعث الأنبياء إلى الناس لم تقم الحجة عليهم ولقالوا: ربنا إننا لم نهتد لأنك لم تبعث إلينا رسولاً، ولو أرسلت إلينا رسولاً لاتبعنا أحكامك وفزنا برضاك. وحيث إنه عذر معقول لذلك يبعث الله أنبياءه، وقد أرسل محمدًا ﷺ الآن لإصلاح العالم بحسب سنته المستمرة هذه. ولو أن هؤلاء سلكوا سبيل الظلم والبغي بدلاً من العمل بآيات الله فلا بد أن يحل بهم العذاب بحسب نبوءة موسى، ولن ينفعهم عندها الصراخ والعويل.

فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٩﴾

التفسير: لقد أخبر الله ﷻ هنا أنه لما بعث محمدًا أثار قومه اعتراضًا جديدًا بدلاً من الإيمان به والعمل بتعاليمه فيرثوا أفضال الله. لقد قالوا: لِمَ لم ينـــزل عليه

الوحي كما نـــزل على موسى.. أي لِمَ لم ينـــزل عليه الكتاب دفعة واحدة كما نـــزل على موسى؟ وقد فصّلت آية أخرى من القرآن الكريم هذا الاعتراض حيث قال الكافرون: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(الفرقان:٣٣). والحق أن التوراة أيضًا لم تنـــزل على موسى عليه السلام مرة واحدة، بل نـــزلت في فترة أطول مما نـــزل فيها القرآن على محمد ﷺ. إذ تذكر التوراة أنه لم ينـــزل على موسى في أول الأمر إلا عشرة أحكام فقط، أما باقي التوراة فقد اكتمل نـــزولها في سنين عديدة وفي أماكن مختلفة في برية سيناء. فثبت أن من الخطأ القول أن التوراة نـــزلت دفعة واحدة.

بيد أن الله تعالى يبين هنا أنه لو سلّمنا جدلاً أن التوراة نـــزلت دفعة واحدة فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: متى آمن الناس بالتوراة التي نـــزلت دفعة واحدة بحسب زعمهم؟! كلا بل قالوا عندها: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾.. أي أن موسى وهارون ساحران كبيران يدعم أحدهما الآخر، ونحن نكفر بالاثنين وإن كان كتابهما قد نـــزل دفعة واحدة. فثبت أنه حتى لو نـــزل القرآن الكريم على محمد مرة واحدة فما كنتم لتؤمنوا به، بل كان لا بد أن تستمروا في الاعتراض.

وقد يكون قول الكفار: ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ إشارة إلى موسى ومحمد – عليهما السلام – والمراد أنهم عندما يتم الرد على جميع مطاعنهم كلها بشكل مفحم وينكشف ضعف موقفهم يقولون منـــزعجين: لن نؤمن بموسى ولن نؤمن بك أيضًا فكلاكما مفترٍ. إنك تذكر موسى مرة بعد أخرى لتستدل على صدقك بما أدلى به في كتابه من أنباء، وكلاكما مفترٍ ويدعم أحدكما الآخر.

الواقع أن الإنسان إذا أنكر حقيقة اضطر لإنكار الحقائق الأخرى حتمًا، فهؤلاء القوم لما كفروا بمحمد كفروا بموسى أيضًا إذ كان كتابه يتضمن أنباءً عن مجيئه ﷺ، فقالوا إن كل هذا الكلام كذب وخداع ولا نرى فيه شيئًا من الحق.

قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

التفسير: أي يا محمد قُلْ لأعدائك، لقد رُفضت التوراة لأنها نـــزلت دفعة واحدة، وقد رُفض القرآن لأنه لم ينـــزل جملة واحدة، فدُلُّوني الآن على كتاب نـــزل بطريق ثالث وكان أكثر نشرًا للهدى من هذين الكتابين، ولكنكم لن تستطيعوا ذلك لأنكم كاذبون. أما أنا فإني مستعد لقبول كل ما هو حق وصدق، فاعرضوا عليّ حقيقة من الحقائق فسترون أني سأصدقها بلا تردد.

فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

التفسير: أي إذا لم يستجيبوا لاقتراحك، فاعلم أنهم لا يبحثون عن الحق بل يُبدون لك كل ما يختلج في قلوبهم من أفكار وأهواء فاسدة، ومن اتبع أفكاره الفاسدة وأهواء نفسه فهو جدُّ ظالم، والله لا يهدي القوم الظالمين طريق الفلاح.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

التفسير: ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ مفهومان: أحدهما أننا أرسلنا لهم رسلنا واحدًا تلو الآخر، أو أنـــزلنا لهم وحينا مرة بعد أخرى؛ والثاني أننا أنـــزلنا هذا القول أي القرآن الكريم نـــزولاً مترابطًا.. أي أننا أنزلنا القرآن كله بترتيب محكم رائع، لكي يتعظوا به.

ونظرًا إلى المفهوم الأول سيعني قول الله تعالى هذا نفس الموضوع الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:٢٥)، وقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾(المؤمنون:٤٥).. أي لم يزل الله تعالى يبعث رسله لهداية العالم، فليس في الدنيا أمة إلا وبعث الله فيهم هاديًا يدعوهم إلى الصلاح والورع. والبحث يؤكد لنا أن كل الأمم متفقة على أن الله تعالى قد بعث فيهم هاديًا ومصلحًا. فعندما نسأل الهندوس يقولون لقد جاءنا "كرشنا" و "رام تشندر" برسالة الله، وعندما نسأل النصارى يذكرون لنا عيسى عليه السلام، وحينما نسأل اليهود يذكرون لنا موسى وهارون، وحين نسأل الفرس يسمون لنا زرادشت، وعندما نسأل الصينيين يسمون لنا كنفوشيوس، وعندما نسأل اليونان يذكرون لنا سقراط. فليس في الدنيا أمة إلا وأمدّهم الله تعالى بأسباب الهدى، ذلك لأنه تعالى كما هو رب العرب فهو رب أهل الهند والصين والشام ومصر وإيران واليونان أيضًا. وحيث إن الله تعالى قد سدّ الحاجات الجسمانية لكل الإنسانية فكيف يمكن أن يهمل سد حاجاتها الروحانية، خاصة وإن وقاية الروح أهم من وقاية الجسم؟ فيلفت الله تعالى أنظار القوم إلى منّته هذه، ويبين أنه لم يزل يهيئ للناس الهدى رحمة منه، ويبعث إليهم رسله واحدًا تلو الآخر وينـــزل لهم الوحي مرة بعد أخرى كي لا يهلك أحد نتيجة جهله بالحقيقة.

أما بالنظر إلى المفهوم الثاني فسيعني قول الله هذا أننا جعلنا هذا القول أي القرآن الكريم مرصعة آياته ومرتبة مواضيعه كلها. ولكن المؤسف أن المسلمين قد أهملوا قضية ترتيب القرآن الكريم تمامًا، وأخذوا يقولون أن لا ترتيب فيه – والعياذ بالله – وكأنهم يقولون إننا نؤمن بأنه كلام الله تعالى ولكنه عارٍ عن ميزة الترتيب والترابط التي توجد حتى في كلام البشر! فتجد المفسرين القدامى لم يولوا موضوع ترتيب القرآن الكريم أدنى اهتمام إلا ابن حيان – رحمه الله – مع أن الله تعالى يبين هنا أن من فضائل القرآن الكريم أنه مرتب ترتيبًا رائعًا ليتدبر فيه الناس ويتعظوا.

ولكن لا يغيبنّ عن البال أن ترتيب الصحف السماوية مختلف عن ترتيب الكتب الأخرى. فمثلاً تتناول كتب البشر مسائل الوضوء أولاً ثم مسائل العبادة ثم النكاح

ثم الطلاق والخُلع، ولكن ترتيب الكتب السماوية يكون مختلفًا عن ترتيب كتب البشر تمامًا، فيظن الجاهل ألا ترتيب فيها.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا تختلف الأسفار السماوية في ترتيبها عن كتب أهل الدنيا؟ والجواب أن في ذلك عدة حِكم منها:

ا: يهدف هذا الترتيب إلى ترغيب القارئ في الكتاب كله. وعلى سبيل المثال لو كان ترتيب الكتاب السماوي كترتيب كتاب "الهداية" الذي يوجد فيه باب خاص لمسائل الوضوء وباب لمسائل النكاح مثلاً لاهتم عامة الناس بالجزء الذي يتفق مع مزاجهم وعملوا به مهملين باقي القرآن الكريم، ولكن الله تعالى قد وزع هذه المسائل والقضايا كلها في القرآن الكريم كله بحيث لا يتيسر للمرء علم كامل بهذه المسائل إلا إذا قرأ القرآن كله.

ب: والحكمة الثانية في هذا الترتيب أن يعتاد الناس على التدبر وإعمال الفكر في الكتاب. ولو أنه تعالى بين هذه المسائل بأسلوب كتب أهل الدنيا لم يدرك الناس أن هذه المسائل تنطوي على دقائق الحِكم والمفاهيم، فمرّوا بها بنظرة سطحية وحُرموا من التدبر فيها، ولكن الله تعالى قام بتوزيع هذه المسائل في كتابه كله وجعلها متداخلة بعضها ببعض بحيث يضطر الإنسان للتدبر فيه، فيكشف له التدبر أن هذا الكتاب بحر زاخر بالمعارف.

ج: يهدف هذا الترتيب الخاص في كتاب الله تعالى إلى إنشاء خشية الله في القلوب. فمثلاً لو بين الله تعالى في القرآن الكريم مسائل الوضوء وطريقة المضمضة وأسلوب العبادة وعدد الركعات كما وردت في الكتب الأخرى مثل "القدوري" و "الهداية" لما تولدت خشية الله في القلوب. متى تتولد خشية الله في القلوب بقراءة "القدوري" و"الهداية" مع أن كل هذه المسائل عن العبادات وغيرها مذكورة فيها. ولكن المرء حين يقرأ نفس المسائل في القرآن الكريم فإن خشية الله تغمر قلبه، ذلك لأن القرآن الكريم يبين هذه المسائل بحيث يجعلها جزءًا من خشية الله. إذ ليست غاية الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الأحكام إلا خلق تقوى الله

وخشيته في القلوب، فالقرآن يقدّم التقوى على كل شيء حتى إذا أمر الإنسانَ بالوضوء يكون مستعدًا له سلفًا، وإذا أمره بالصلاة يكون جاهزًا لها من قبل. ولكنه لو تناول الصلاة في باب منفصل لما تولدت خشية الله في القلوب.

باختصار إن الكتاب السماوي يقدّم إصلاح النفوس على كل شيء آخر، فلا يتبع الترتيب العام السطحي، بل يتبع ترتيبًا جديدًا هو ترتيب عاطفي، بمعنى أنه يستفيض في الحديث وفقًا لما يتولد في قلب الإنسان من مشاعر وتغيرات. فمثلاً إنه لا يتناول مسائل الصلاة بعد ذكر الوضوء فورًا، بل يوجه انتباه الإنسان بذكر الوضوء إلى الطهارة والروحانية وقرب الله تعالى، لأن الوضوء يولد مشاعر الطهارة. ثم عند ذكر موضوع الصلاة لا يبدأ الله تعالى في بيان مسائلها بل يستغلّ المشاعر التي تختلج في قلب الإنسان بذكر الركوع والسجود، فيوجهه إلى الله تعالى حتى يزداد قربًا منه تعالى مغتنمًا هذه المشاعر.

باختصار، إن ترتيب القرآن الكريم لا يتأسس على الظاهر، إنما أساسه على موجات العواطف التي تتولد في القلوب، والتي تختلف من شخص إلى شخص. وأضرب لبيانها المثال التالي:

يقال أن شيخًا بدأ يصلّي بالناس، فخطر بباله أن الذين يصلّون وراءه اليوم هم من الأثرياء، فقال في نفسه لو أعطاني هؤلاء هدايا فسيكون عندي مال كثير أستثمره في التجارة، فأذهب بالبضائع إلى "دلهي" مرة وإلى "كولكتا" مرة أخرى، فلم يزل يجول بأفكاره هنا وهناك حتى خطط للرحلات التجارية في الخارج حتى وصل إلى بخارى. وكان من بين المصلين رجل من الصالحين، فكشف الله ﷻ عليه حال الشيخ وأخبره بكل ما يجول في رأسه من أفكار، فقطع صلاته وراء الشيخ وأخذ يصلي على حدة. فلما انتهى الشيخ من الصلاة أخذ يلوم الرجل الصالح، وقال: ألم تعلم أن قطع الصلاة بدون مبرر ممنوع؟ فقال الرجل الصالح: إني أعلم هذه المسألة، ولكن صحتي ليست على ما يرام، لقد سافرتُ معك في الصلاة إلى دلهي ثم إلى بخارى، ثم تعبتُ وانفصلت عنك، لأني لا أقدر على هذا السفر الطويل. فأصيب الشيخ بخجل شديد.

فترى أن الشيخ كان يقوم بالركوع والسجود في الظاهر ولكن أفكاره سارت به من بلد إلى آخر. لا شك أنها أفكار فاسدة ولكنك ترى أنها نشأت في قلبه وفقًا لترتيب مشاعره وعواطفه. ونفس الحال بالنسبة للأفكار الصالحة، فإنها أيضًا تتولد تبعًا للمشاعر والعواطف. فمثلاً إذا كنتَ تصلي بحضور القلب والخشوع وسجدتَ وقلت "سبحان ربي الأعلى"، فإن سبوحية الله ستتراءى أمام عينيك، وستظل مستولية على مشاعرك، فرغم أنك تردِّد بلسانك "سبحان ربي الأعلى" للمرة الثانية أو الثالثة، إلا أن قلبك سيظل يستمتع بالتسبيحة الأولى ولن يريد الخروج منها. أو إذا قلت مثلاً "الحمد لله" بحضور القلب والخشوع تراءت أيادي الله ونِعمه أمام عينيك، فتظل مستغرقًا فيها؛ وإذا كنت تصلي حينئذ وراء إمام، فيظل حمد الله مستوليًا على قلبك مع أنك تكون قد تقدمت مع الإمام إلى الركوع والسجود وتردد بلسانك "سبحان ربي العظيم". فثبت أن كيفيات روحانية معينة تستولي على القلوب في أثناء الصلاة، والحق أن تلك الكيفيات هي الصلاة بعينها. لا شك أن المرء يردد بلسانه كلمات مختلفة، ولكن مشاعره الروحانية تجري على نمط معين. والواقع أن ترتيب القرآن الكريم يتأسس على تلك الكيفيات الواردة على قلب الإنسان. إن الله تعالى لا يتناول في القرآن الكريم موضوع الصوم بعد الصلاة مثلاً لأنه يعلم المشاعر والأفكار التي قد تولدت في قلب القارئ بقراءة آيات الصلاة، بل يتحدث بحسب الأفكار الناتجة في قلبه.

إذًا، فإن ترتيب القرآن الكريم مبني على المشاعر التي تتولد في قلب المرء عند القراءة، لأن الله عالم الغيب ويعلم الأفكار التي يمكن أن تختلج في قلوب المؤمنين بقراءة آية معينة أو حكم معين من القرآن الكريم، فرتّبه بحسب تلك المشاعر والأفكار عوضًا عن الترتيب العادي السطحي.

بيد أن من نتائج هذا الترتيب أن الذين لا يقرأون القرآن الكريم بمحبة وإخلاص يبدو لهم هذا الكتاب مملاً. فيقولون مثلاً كان الحديث فيه عن موسى ثم تحول إلى نوح فجأة، ثم بدأ القرآن يقص حالات شعيب – عليهم السلام – أو يقولون كان القرآن يتحدث عن الربا ولكنه تناول موضوع الصلاة فجأة. فتبدو لهم هذه الأمور

بلا ترتيب بحيث يتعذر عليهم أن يدركوا ما يصل بعضها ببعض، ولكن هذه الأمور نفسها عندما يقرأها أحد العلماء يتمتع بها فيرقص قلبه فرحًا.

أما إذا سألت ما السبيل لفهم هذه الصلات بين الآيات، فالجواب كالآتي:

أولاً: على المرء أن يقرأ كلام الله تعالى كله ويقرأه مرة بعد أخرى، وليس أن يختار عبارة معينة منه للقراءة.

ثانيًا: أما الذين تظل عاطفة حبهم للقرآن الكريم كاملة في كل حين فيكفيهم أن يحدّدوا وقتًا لقراءة القرآن الكريم في الصباح أو المساء، ولكن الذين لم تبلغ محبتهم هذه الدرجة فعليهم أن يقوموا بتلاوة القرآن – علاوة على تلاوته صباحًا أو مساءً– حين تكون عاطفة المحبة جياشة في قلوبهم سواءً وقت الظهر أو أي وقت.

ثالثًا: على المرء أن يقرأ القرآن موقنًا أنه كنـــز لا ينفد. ذلك لأن الذين يظنون أن معارف القرآن منحصرة فيما ذكره لهم العلماء أو ما ورد في التفاسير فإن هذا الكتاب يظل مغلقًا بالنسبة إليهم، أما الذي يوقن بأن القرآن كنوز المعارف والعلوم التي لا نهاية لها يجد هذا الكتاب بحرًا من المعرفة لا شاطئ له. ومثاله أنك إذا مررتَ بغابة وجدت فيها آلاف الأشجار ولكنك ستمر بها دون التأمل فيها، أما إذا مر بها أحد مسؤولي مصلحة الغابات ليتفقدها فسيجد فيها عشرات الأمور الجديدة. كذلك فمن قرأ القرآن الكريم موقنًا بأنه كنـــز لا ينفد وأنه مرتب ترتيبًا محكمًا رائعًا، فلا بد أن ينتفع منه كثيرًا، أما الذي لا يقرأه بهذا الإيمان واليقين يظل محرومًا من الانتفاع منه.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا

صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

يدرؤون: دَرَأَه دَرْءًا ودَرْءَةً: دفَعه؛ وقيل: دفَعه شديدًا. (الأقرب)

التفسير: أي أن الذين أوتوا الكتاب قبل القرآن الكريم ويؤمنون به حقًّا وليس بالاسم فقط، فهم يؤمنون بالقرآن أيضًا بصدق القلب، إذ يتضمن كتابهم نبوءات عن نـــزوله، فإذا قُرئ عليهم القرآن قالوا قد آمنّا به، فإنه كتاب حق من عند ربنا، وقد كنا مطيعين لأوامر الله من قبل ونحن مطيعون لها الآن أيضًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.. أي أن الذين يقدّمون هذه الأسوة الحسنة من أهل الكتاب ويصبرون على أنواع الأذى والتعذيب الذي يتعرضون له من قِبل قومهم بسبب إيمانهم بالقرآن، فأولئك يُعطون أجرًا مضاعفًا من عند الله تعالى؛ سينالون أجرًا لأنهم ظلوا متمسكين بالتوراة، وينالون أجرًا آخر لأنهم آمنوا بالقرآن الكريم أيضًا، أو المعنى أنهم ينالون أجرًا في الدنيا وأجرًا في الآخرة.

واعلم أن للصبر في العربية ثلاثة معان: الأول: الإمساك عن الإثم، والثاني: الثبات على أعمال الخير، والثالث: عدم الشكوى والجزع عند حلول الشدائد (الأقرب). وعليه فقد بين الله تعالى في قوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.. أنهم يُعطَون الأجر المضاعف لأنهم (أوّلاً): تجنبوا الذنوب دائمًا، فوفّقهم الله تعالى لتلبية نداء هذا المنادي، (وثانيًا): أنهم ظلوا متمسكين بالحسنات فأعجب الله فعلُهم هذا ووفّقهم لحسنة أخرى فآمنوا بمحمد ﷺ، (وثالثًا): أنهم تعرضوا لأذى المعارضين بسبب إيمانهم بالتوراة من قبل، وقد تعرضوا الآن أيضًا لمطاعن قومهم بسبب إيمانهم

بالقرآن الكريم، فلم يشتكوا بل رضوا برضا الله دائمًا. وهذه حسنات لا تضيَّع أبدًا، لذلك سيجزيهم الله عليها في هذه الدنيا، كما يُنعم عليهم برضوانه في الآخرة.

ثم بين الله تعالى أن أهل الكتاب هؤلاء يتحلون بسمات حسنة أخرى أيضًا منها:

السمة الأولى: أنهم ﴿يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾. ولهذه الجملة عدة معان أوّلها: أنهم يقدمون أسوتهم الحسنة درءًا للسيئة ، وهكذا يبينون للناس أن تجنُّب السيئات ليس بأمر مستحيل. وكأنهم يقولون بلسان حالهم ما دمنا قد تركنا السيئات فكيف يصعب على الآخرين التغلب عليها. وثانيها: أنهم يقومون بالوعظ والنصح لنشر الخير ليتم القضاء على السيئات في أذهان الناس وتتولد في قلوبهم الكراهية تجاهها. وثالثها: أنهم يتخذون للقضاء على السيئة موقفًا يأتي بنتيجة طيبة، بمعنى أنهم إذا رأوا إصلاح المجرم في العفو عفوا عنه، وإذا رأوا إصلاحه في عقابه عاقبوه. فهم لا يسعون للانتقام دائمًا كما تأمر التوراة، ولا يعفون عن المجرم دائمًا كما يأمر الإنجيل، بل يدفعون السيئة بحسب مقتضى الموقف والظرف وبما يكون مآله حسنًا.

والسمة الثانية: أنهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.. أي أنهم لا ينفقون أموالهم على الفقراء فحسب، بل ينفقون نصيبًا من كل ما أعطاهم الله من النعم من أجل الإنسانية. علمًا أن الرزق في العربية يُطلق على "كل ما يُنتفع به" (الأقرب)، فهو يشمل المال والعلم والقوة والغلال والوقت وما إلى ذلك من عطايا الله تعالى مما ينفع الإنسان بشكل أو بآخر. فقد نبّهنا الله تعالى بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أن على المرء أن ينفق لنفع الإنسانية من كل ما أعطاه الله تعالى؛ فمثلا إذا كان عند شخص مهارة ما ولكنه لا يملك مالاً، فعلينا أن نساعده بالمال لينتفع بمهارته، وإذا لم يكن عند شخص ما يأكله فعلينا أن نطعمه، وإذا لم يكن عند شخص ما يشربه فعلينا أن نسقيه، وإذا لم يكن عند أحد ما يلبسه فعلينا أن نعطيه الثياب.

وكان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أن أحد الصلحاء كان أثناء تلاوة القرآن بلسانه يمرر إصبعه أيضًا على كلمات المصحف بناءً على هذا الحكم الرباني، فسئل عن سبب ذلك؟ فأجاب: إن لساني وعيني وإصبعي كلها هبة من الله تعالى، فأشرك هذه الثلاثة في قراءة القرآن في وقت واحد، لأني أخاف أني لو اكتفيت بتلاوة القرآن باللسان فقط فيقول الله لي لِمَ لم تشرك يدك وعينك في قراءته، ولو قرأته باللسان واليد فقط يقول الله لي: لِمَ لم تشرك عيونك في قراءته، وإذا قرأته بالعيون فقط فيقول الله لي: لِمَ لم تشرك لسانك ويدك في قراءته؟

فالله تعالى يبين هنا أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يحبون الإنسانية حبًا عميقًا، فينفقون نصيبًا من كل نعمة أعطاهم الله إياها للنهوض بالناس. فمثلاً إذا أنفقوا المال لخير الناس فلا يظنون أنهم قد أدوا حق خدمتهم بل يُشركون الآخرين في كل ما أعطاهم الله من خير ونعمة للنهوض بهم.

لقد رأيت أن زوجة عمي – رغم بلوغها سن الثمانين أو الخامسة والثمانين – كانت تغزل القطن طوال السنة، ثم تبعثها إلى الحائكين، ثم تصنع الألحفة وأغلفتها، ثم توزعها على الفقراء. وكانت تقوم بمعظم هذا العمل بيدها. وإذا قيل لها: لماذا ترهقين نفسك ولا تستعينين بالآخرين؟ قالت: لا أجد متعة إلا إذا قمت بهذا العمل بنفسي.

إذًا، فلا بد للمرء أن ينفق في سبيل الله تعالى من كل ما أعطاه. إن الذين يعطون الفقراء شيئًا من أموالهم ويظنون أنهم قد أدوا الواجب لمخطئون. إن الذي ينفق على الفقراء شيئًا من ماله ولكن لا يقوم بالدعوة إلى الله بلسانه فلا يحق له أن يدعي أنه قد أدى واجبه. والذي يقوم بالدعوة إلى الله ولكن لا يهتم بخدمة الأرامل واليتامى فلا يحق له أيضًا أن يدعي أنه قد أدى واجبه كما ينبغي. كذلك لا بد للمرء أن يضحي بعواطفه ومشاعره أيضًا في سبيل الله تعالى، فإذا غضب على أحد كظَم غيظه وعفا عنه لوجهه تعالى. إن حُكم الإنفاق في سبيل الله يشمل كل الأعمال التي تتعلق بخدمة الخلق، وعلى شبابنا أن يهتموا بهذا المجال بشكل خاص،

فيخدموا الإنسانية كلها بدون تمييز بين دين وملة طبقًا لمستوى المسلم الأحمدي ليحظوا برضوان الله تعالى.

السمة الثالثة: ثم يقول الله تعالى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾.. أي إذا سمعوا كلامًا سخيفًا من قبل الذين يكفرون بالله الأحد أعرضوا عنهم وقالوا: لماذا تعادوننا؟ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا نريد لكم إلا خيرًا وسلامًا، ولكن لا نحب صحبة الجاهلين العصبيين.

لقد بين الله تعالى هنا ميزة أخرى للذين أسلموا من أهل الكتاب بأنهم يُعرضون عن اللغو. ولكن المؤسف أن المسلمين الذين كتابهم القرآن – سواءً منهم القدامى أو الجُدد من الأوربيين والأمريكان الذين جاءوا من أهل الكتاب تتحدث عنهم هذه الآية – يشاهدون السينما والمسرح، ويحبون اللغو بدلاً من أن يعرضوا عنه، مع أن النبي ﷺ قد نهى عن اختلاط الرجال والنساء، وليست الأفلام إلا نتاج الاختلاط بين الرجال والنساء، إذ إن إخراج الفيلم مستحيل بدون أن يختلطوا ويرقصوا معًا؛ وهذا غير جائز في الإسلام. ولكن المؤسف أن المسلم اليوم يندفع شوقًا إلى هذا اللغو، كما أن المسلم الحديث من أوروبا وأمريكا أيضًا منهمك في هذا السخف. ليتَهم يتعظون ويسعون للتحلي بهذه المحاسن التي بيّنها الله هنا.

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾

التفسير: أي يا محمد إنك تحب الخير للإنسانية جمعاء وتريد أن تهدي الخلق كلهم، ولكن أمنيتك هذه لن تتحقق لأن من سنة الله تعالى أنه لا يهدي إلا الذين يريدون أن يهتدوا.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

نُتَخطَّفْ: تخطَّفَه: انتزعَه؛ واجتذبَه؛ واسترقَه؛ واستلبَه؛ ومَرَّ به سريعًا. (الأقرب)

يُجبى: جبَى الخِراج يجبوه جَبْوةً وجَباوةً يجبي جِبايةً، وجبا المالَ والخِراجَ: جمَعه؛ والجابية: الحوض الذي يُجبى فيه الماءُ للإبل. (الأقرب)

التفسير: أي يقول المعارضون لمحمد ﷺ لو دخلنا في الإسلام معك سيتخطفنا الناس.. أي أنك تعلِّم السِّلم، لو اتبعنا طريق السِّلم فإن الأمم حولنا ستدمرنا وتستعبدنا، فيرد الله عليهم: أوَلم نُسْكِنهم في الحرم الذي هو مكان أمن وسلام، ويؤتى إليه بأنواع الثمرات من كل مكان رزقًا وعطاءً من عندنا؟ ومع ذلك فإن معظمهم لا يفهمون ولا يدرون أن الله الذي جعل مكة حرمًا منذ زمن إبراهيم وحماها دائمًا – حيث دمر جيشَ أبرهة حمايةً لبيته، وما زال يجلب إلى هذا الوادي الذي لا يوجد فيه زرع ولا ماء صنوفَ الثمار والغلال من كل أنحاء العالم – لا يمكن أن يتخلى عن حمايتهم لو آمنوا بالهدي الذي نـــزل في هذا العصر. أليس من الغباء أنهم يرون هذه الآية الإلهية العظيمة بأم أعينهم ومع ذلك لا يدخلون في الإسلام بناء على خوفهم – الذي لا أساس له – بأن الأمم التي حولهم ستخطفهم وتأكلهم، ولا يدركون أن الله تعالى لا يضيع أبدًا من يضحي في سبيله، ولو أنهم آمنوا لحماهم وجعلهم غالبين على أعدائهم مثلما أيد إبراهيم بنصره وأمدّه بنعمه في ذلك الوادي الذي لم يوجد فيه زرع ولا ماء ولا كسرة خبز.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

بطِرَت: بطِر يبطَر بطرًا: أخذتْه دهشة وحيرة عند هجوم النعمة عن القيام بحقّها؛ أو طغى بالنعمة أو عندها؛ وبطِر الشيءَ: كرِهه من غير أن يستحق الكراهةَ؛ وبطِر الحقَّ: تكبَّرَ عنه فلم يقبَله؛ وعند بعضهم: لم يره حقًّا فتكبَّرَ عن قبوله؛ وبطِر فلان النعمةَ: استخفّها فكفَرها؛ وأبطَره المالُ: جعله بَطِرًا. (الأقرب)

التفسير: ينبغي أن لا يصاب أهل مكة بالكبرياء نتيجة العزة والمنعة التي تيسرت لهم بسبب دعاء إبراهيم. فكم من قرية أصابها رخاؤها بالغرور، والنتيجة أنكم ترون بأم أعينكم مساكنهم خربة لا يسكنها أحد بعدهم وأصبحنا نحن الوارثين لها.. أي أن ذريتهم هلكوا وبادوا فأصبحت ديارهم خرابًا يبابًا. فلِم لا يعتبر أهل مكة بذلك؟ ولِم أصيبوا بالزهو والغرور نتيجة كثرة الرزق الذي هو هبة ربانية؟ ولِم لا يقبلون الحق الذي هو الأساس؟

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في هذه الآية قاعدة هامة بأنه لا يُنـــزل العذاب على بلد إلا بعد أن يبعث رسولاً في البلدة التي هي مركزه الديني عنده تعالى، ليذكّر الناس بأحكامه تعالى، كما أن الله تعالى لا يهلك بلدًا ما دام أهله عادلين غير ظالمين، إنما ينـــزل العذاب بقوم إذا أصبحوا ظالمين أو كافرين بنبيهم. وقد بين الله

تعالى هذا الموضوع في موضع آخر فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾(طه:١٣٥).. أي لو أننا أهلكناهم بالعذاب قبل بعثة رسول لاعترضوا علينا قائلين: ربنا لقد رأيتَنا ظالمين وبحاجة إلى الهدى، فلِم لم تبعث إلينا رسولاً لهدايتنا حتى نتبع أوامرك من قبل أن نذل ونخزى؟ فترى أن الله تعالى لم يرفض اعتراضهم هذا بل أقرّ بصحّته. والحق أن القرآن الكريم قد تناول هذا الموضوع في أماكن متعددة مؤكدًا أهمية هذا الاعتراض، فمثلاً قال الله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ۞ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾(الأنعام:١٣١-١٣٢).

لقد تبين من هنا أن إصدار الفتوى بهلاك قوم بدون إنذارهم ظلمٌ.. وبتعبير آخر إن من الظلم أن يكون قوم بحاجة إلى الهدى فلا يرسل الله إليهم هاديًا، ويعذبهم يوم القيامة قائلاً: لِمَ لم تتبعوا أوامري؟ والله تعالى لا يفعل هكذا لأنه ليس ظالمًا.

وباختصار من سنة الله أنه لا يُنـــزل عذابًا عالميًا على الدنيا ما لم يبعث إلى أهلها رسولاً من عنده ليذكرهم ويحذرهم. فالحق أن نزول أنواع الكوارث والعذاب على الدنيا في هذا العصر بما لا نظير له في الماضي، لدليل على صدق المسيح الموعود عليه السلام الذي بعثه الله رسولاً لهداية الدنيا، والذي حذر العالم قبل حلول هذه البلايا والكوارث قائلاً ما تعريبه: "لقد جاء نذير إلى الدنيا فلم تقبله، ولكن الله تعالى سيقبله ويُظهر صدقه بهجمات قوية." (براهين أحمدية (أردو) الأجزاء الأربعة، الخزائن الروحانية المجلد الأول ص ٦٦٥)

وبعد إعلان هذا الوحي وقعت من عند الله تعالى هجمات قوية على شكل زلازل وحروب وأوبئة وفيضانات مما أودى بالملايين، ورأى الناس في الدنيا مشهدًا كيوم القيامة؛ ولكن المؤسف أن قلوب بعض الناس قست برؤية هذا الدمار الشديد أيضًا، فقالوا بكل جسارة: ما الغريب في وقوع الزلازل والحروب والأمراض والفيضانات فإنها ظواهر طبيعية تقع في الدنيا دائمًا؟ وبما أن مثل هؤلاء القوم قد

مضوا أيضًا في الأمم الخالية التي تفوهت بمثل هذه الأقوال ضد أنبيائها احتقارًا لآياتهم، فقد سجل الله تعالى اعتراضهم أيضًا في القرآن الكريم فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾(الأعراف:٩٥-٩٦). والمراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أنهم تقدموا وازدهروا وأخذوا يقولون قد أتى العسر واليسر على آبائنا أيضًا، فليس في هذه البلايا والكوارث دليل على صدق الأنبياء.

فالواقع أن هذه الفكرة الخطيرة لا توجد إلا في قلوب الذين قد ابتعدوا عن الحق، وإنما الأمر الواقع أن العذاب العالمي لا يأتي إلا بعد أن يبعث الله رسولاً حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٦). إذًا، فهذا العذاب ليس مما يستهان به، إنما هو دليل على أن رسولاً قد بُعث من عند الله تعالى في هذا العصر.

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

التفسير: أي أن الناس يرون لغبائهم أن متاع الحياة الدنيا من مال وعز ونفوذ دليلٌ على رقيهم ونجاحهم، فيصابون بالزهو والغرور، والحق أن ملذات الدنيا تجلب لهم الراحة والمتعة لفترة قصيرة جدًا، أما الرقي الذي يكتبه الله تعالى لقوم فليس كتجارة صغيرة أو كحفنة من الذهب والفضة، بل هو أكبر منها وأبقى بكثير، ألا وهو الغلبة والحكم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.. أي أليس عندكم عقل حتى تدركوا هذا الأمر وتسعوا للرقي القومي بالإيمان بمحمد (ﷺ) بدلاً من الرقي الفردي؟

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦٢﴾

التفسير: لقد بين الله هنا أن من أُعطي ثراء الدنيا لا يساوي من وعده الله تعالى بالبركات الروحانية في المستقبل. وبما أن ما يملكه الشخص الأول مال مادي وما يوعد به هذا المؤمن شيء روحاني، فمن علامة إيمانه أن يعتبر ما وُعد به أفضل من الحاضر الموجود عند الشخص الأول، ذلك لأنه إذا كان مؤمنًا حقًا فلن يعتبر وعد الله أقل من الحاضر الموجود.

علمًا أن الوعد يعني في بعض الأحيان الوعيد أيضًا أي وعد العذاب كقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾(الأعراف:٤٥)، ولذلك قال الله هنا: ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ ليوضح أن الوعد هنا يعني ما وُعد به المؤمنون من رقي وجزاء روحاني في الآخرة.

ثم قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ فبيّن أن الخير ما تكون عاقبته خيرًا، ولكن الذي نال متاع الدنيا ثم أُحضر يوم القيامة للحساب فلن يستوي هو والذي وعده الله بالحسنى.

واعلم أن من مزايا القرآن الكريم أنه يبين معاني واسعة بتغيير بسيط في الكلمة في بعض الأحيان، فمثلاً قد استعمل الله هنا صيغة المجهول فقال: ﴿الْمُحْضَرِينَ﴾.. ليبين أن هذا لن يحضر بنفسه بل سيؤخذ ويُجَرُّ كما يؤخذ المجرمون إلى المحكمة مقرّنين في الأصفاد ليصدر الحكم بشأنهم.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ

أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٤﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٥﴾

التفسير: أي اذكُروا ذلك اليوم الذي ينادي الله فيه ويقول أين القوم الذين كنتم تتخذونهم شركائي مع أنهم لم يكونوا لي شركاء أبدًا. فيقول الشركاء المزعومون – الذين نكون قد أصدرنا القرار بعذابهم– ربنا هؤلاء هم القوم الذين أضللناهم، ولكنا لم نضلّهم بسوء نية وإنما لأننا كنّا بأنفسنا ضالين، وها نحن نتبرأ منهم أمامك إذ لم يكونوا يعبدوننا، بل كانوا يعبدون أهواءهم في الواقع.

إن محتوى هاتين الآيتين يبين أن الحديث هنا ليس عن أي كائنات غير مرئية إنما هو عن كبراء القوم من أئمة الكفر الذين يتخذهم الناس كالآلهة والذين يُضلّونهم بمكرهم وشرورهم. كما ليس المراد من كلمة ﴿شركائي﴾ أن الناس كانوا بالفعل يعتبرونهم آلهة، ذلك لأن الأمر الواقع أن الذين يعتبرهم الناس آلهة ليسوا ضالين بأنفسهم ولا يُضلّون غيرهم، بل الحق أنهم لا يدّعون ما يعتقد عنهم الناس من عقائد باطلة. فمثلاً يخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن الله تعالى عندما يسأل المسيح عليه السلام يوم القيامة: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يقول المسيح في الجواب: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(المائدة:١١٨). لقد تبين من هنا أن المسيح وأمه اللذين اتخذهما النصارى إلهين لا يعلمان شيئًا عما يعتقد هؤلاء فيهما، بينما يخبر الله تعالى هنا أن هؤلاء الشركاء يقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾. فثبت أن الشركاء المذكورين هنا هم أئمة الكفر الذين يستغلّون مكانتهم ونفوذهم لإضلال الناس، وهؤلاء سيقولون يوم القيامة ربنا قد

علّمناهم ما رأيناه حقًا و لم يُطِعْنا هؤلاء إلا لأنهم كانوا يرغبون في ذلك إذ لم نمارس عليهم جبرًا أو إكراهًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...الخ﴾ فالحديث هنا عن الشركاء من نوع آخر.. أي الذين يعبدهم الناس في الواقع، فيقول الله تعالى للذين كانوا يعبدونهم ادعوا شركاءكم الآن ليُنجوكم من العذاب، فيدعونهم فلن يستجيب لهم شركاؤهم، وسيجدون عندها أمارات العذاب بادية لهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.. أي أنهم يقولون ليتَهم اتبعوا سبيل الهدى و لم يشركوا فلا يكونوا عرضة لعذاب الله تعالى.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٦﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

عميت: عمِي: ذهَب بصرُه كله من عينيه كلتيهما؛ وعمِي فلان: ذهَب بصرُ قلبه وجَهِلَ؛ وعمِي عليه الأمرُ: التبسَ واشتبهَ، ومنه ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ وعميت الأخبار عن فلان: خفيتْ. (الأقرب)

التفسير: أي اذكروا ذلك الوقت الذي سيُحضرهم الله فيه عنده ويسألهم ماذا أجبتم الرسل الذين بعثتهم لهدايتكم؟ فلن يستطيعوا الجواب إذ يصيبهم الذعر برؤية جهنم أمامهم وينسون ما كانوا يحملونه من قبل من أفكار ويأتونه من أعمال، بل لن يقدروا أن يسائل بعضهم بعضًا.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾. واعلم أن كلمة ﴿عسى﴾ تفيد الرجاء والأمل عادة، ولكنها إذا

استُعملت من قِبل الله تعالى فتفيد القطعية واليقين (القرطبي)؛ وعليه فالمراد هنا أنهم سيكونون من الفائزين حتمًا.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٩﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٠﴾

شرح الكلمات:

الخِيَرَة: خَار الرجلَ على غيره: فضَّله؛ وخارَ الشيءَ: انتقاه؛ وخارَ فلانًا بين الأمرين: فوَّض إليه الخيارَ. (الأقرب)

تُكِن: أكنَّ الشيءَ: ستَره في كِنّه وغطّاه وأخفاه؛ والكِنّ: وِقاءُ كلّ شيء وسِترُه. (الأقرب)

التفسير: أي أن ربك يُحدث ما يشاء من انقلاب، ويبعث من يشاء لهداية الدنيا، ولكن شركاء الكفار فليس بيدهم خيار لأي تغيير وتبديل في الدنيا، وهذا دليل على أن الله منـــزه عن كل ضعف ونقص، وأنه أسمى من عقائدهم الوثنية وأفكارهم الفاسدة.

كما ردَّ الله تعالى بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ على الذين يؤمنون بأزلية الروح والمادة ولا يؤمنون بأن الله خالقهما، وإنما يعتقدون بأن الله تعالى يجمع بين الروح والمادة الموجودتين معه منذ الأزل ويخلق صورًا جديدةً منهما.

كما أن الله تعالى قد ردَّ بذلك على الطبيعيين الذين يظنون أن الله تعالى قد تخلى عن الخلائق بعد أن خلقهم ولا صلة له بهم الآن. فكأن الله تعالى مجرّدُ بنَّاء عندهم- والعياذ بالله - فكما أن البنَّاء يتخلى عن العمارة بعد بنائها كذلك قد تخلى الله عن الكون واعتزل بعد خلقه.

باختصار إن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ تفنيد للطائفتين حيث بين أنه هو خالقُ كل شيء، ولم يتخلَّ عن الإنسان بعد خلقه، بل لا يزال يشمله بعنايته عند كل خطوة في سبيل رقيّه. فكلما يكون الخَلق عطاشى للهدى يبعث الله إليهم رسولاً من عنده بمقتضى صفة ربوبيته، فيحدث رسوله في الدنيا انقلابًا جديدًا مرة أخرى. فهلا يخبر المشركون ماذا يعمل شركاؤهم المزعومون في الدنيا، وماذا يحدثون فيها من انقلاب وتغيير، فإذا لم يستطيعوا أن يقدموا مثالاً واحدًا على ذلك الانقلاب، فما المبرر لأن يشركوا بالله سواه؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.. أي عليهم أن يعلموا أن خططهم لن تنفعهم شيئًا وأن مكائدهم لن تُنجحهم، لأن رب السماوات والأرض قد أراد نشر وحدانيته في العالم والقضاء على الشرك، فلن ينفعهم الآن ما يبذلون لتأييد الشرك والوثنية من مكر مكشوف وكيد خفي.

وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧١﴾

التفسير: بعد إبطال عقيدة الشرك يوضّح الله تعالى هنا للناس مكانة التوحيد الحقيقي ويقول إنه لا إله إلا هو، وهو الذي كان له الحمد في البداية ويكون له في الآخرة أيضًا، وبيده المُلك كله، وإليه ترجعون في نهاية المطاف.. أي أن منه ﷻ البداية والعاقبة، وحمده يتأكد حيثما تتجلى يده تعمل، وكل الأشياء تفنى في النهاية ولا بقاء إلا لذات البارئ تعالى، مما يشكّل دليلاً على وحدانيته.

والحق أن قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ يومئ إلى صفتَي الله الرحمن والرحيم، ذلك لأن الرحمانية تتعلق بالبداية والرحيمية تتعلق بالعاقبة. إن الرحمانية هي التي تلعب الدور الأول في جميع شؤون العباد سواءً ما يتعلق منها بالله وما يتعلق ببني جنسهم، وكلما تدبر المرء في ذلك تجلى له حمد الله تعالى أكثر

فأكثر. فترى مثلاً أن الأُمّ هي التي تحسن إلى ولدها في الظاهر حيث تحمله في بطنها أو تسقيه لبنها، ولكن لو فكرتَ فيمن خلَق في بطنها أسباب نموّ الوليد ومَن خلَق في ثديها اللبن تبينَ لك أن الحمد لله في الواقع. كذلك يُعتبر الأب محسنًا إلى ولده حيث يتولى كفالته والإنفاق عليه، ولكن الواقع أنه لم يخلق القدرات والأسباب التي يكسب بها المال بل إن الله تعالى هو الذي زوده بها. فثبت أن الحمد لله أوّلاً وإليه يرجع الحمد أخيرًا. وترى الدنيا تثني على أهل الحسن والجمال، ولكن هل يقدر أحد منا على أن يخلق صورته بنفسه؟ وتشيد الدنيا بالعلم، ولكن أليس حقًّا أن الأسباب التي يُنال بها العلم بما فيها الذاكرة التي تحفظ العلم كلها مما خلقه الله تعالى؟ وتمدح الدنيا أهل الذكاء والعقل، ولكنهما أيضًا هبة ربانية وليسا مما يُكتسب. فثبت أن الله صاحب الحمد في الواقع إذ خلق هذه الأسباب كلها. عندما تحمد الدنيا الخَلْقَ يظن الشخص الجاهل أنها تثني عليهم، ولكن الإنسان البصير يعلم أنه مخدوع، إذ إنها تحمد الله في الواقع وأنه تعالى هو صاحب الحمد في الحقيقة.

ثم أخبر الله تعالى أن له الحمد في الآخرة أيضًا.. أي أنه ليس رحمانًا فحسب، بل رحيم أيضًا. والرحيم من يرحم مرة بعد أخرى، ولا يمكن استمرار رحمة الله على العبد إلا إذا نال حياةً أبديةً، وأيضًا إذا دخل كل إنسان – مهما كان آثمًا – في كنف رحمته تعالى في النهاية بعد أن تُغفر له ذنوبه. تعلن المسيحية للعالم أن الجحيم أبدي، ولكن رحيمية الله تفنّد هذه العقيدة، ذلك لأن سيئات كل جهنمي ستظل على حالها، بينما تستمر حسناته في الازدياد نتيجة رحمة الله المتكررة، وبالتالي تزداد حسناته على سيئاته في النهاية، وإذا زادت حسناته على سيئاته فلا يجوز إبقاؤه في الجحيم، بل سيُدخل في الجنة حتمًا. وهكذا سيثبت في الآخرة أيضًا أن الحمد كله لله الذي زاد حسنات أهل النار أيضًا نتيجة رحيميته، وأنـــزل رحمته عليهم مرة

بعد أخرى حتى استحقوا فضل الله في نهاية المطاف. وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في حديثه: "يأتي على جهنم زمانٌ ليس فيها أحد ونسيمُ الصبا تحرّك أبوابها".[٥]

ومن أجل ذلك يقول الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس:١١).. أي أن الله تعالى وحده يستحق الحمد كله إذ زاد حسناتنا حتى جزانا على كل حسنة عشرة أضعاف، وزاد حسنات أصحاب النار أيضًا حتى دخلوا الجنة في النهاية وفازوا برضوانه تعالى.

وباختصار قد أخبر الله تعالى في قوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ أنه كما يثبُت أن الله تعالى هو صاحب الحمد في بداية كل عمل إذ يهيئ الأسباب التي لولاها ما استطاع الإنسان إنجاز شيء، كذلك يثبُت في النهاية أيضًا أنه تعالى هو صاحب الحمد كله حيث يأتي بنتائج الأعمال. ثم إن رحيميته تتقبل القليل من الحسنات أيضًا كبذرة ثم تنميها باستمرار حتى إن أولئك الذين كفروا بأنبيائهم ونالوا العقاب على سيئاتهم سيسترهم الله تعالى برداء مغفرته ويخرجهم من الجحيم. فثبت أن الله هو الأول والآخر، وكما أن الحجاج يطوفون حول الحجر الأسود في الحج فيبدأون به طوافهم ويُنهونه عنده أيضًا، كذلك يطوف المؤمن بالله تعالى؛ فبه يبدأ طوافه، وأمامه يسقط في النهاية أيضًا. وكما أن القنوات التي تتفرع عن الأنهار ثم تصبّ فيها، أو كما أن الناعورة تخرج من البئر مليئةً من جهة وتغوص فيها من جهة أخرى، كذلك فإن المؤمن يخرج من عند الله تعالى ويعود إليه ثانية، ويجري حمده وثناؤه على لسانه في كل حال.

كما أن في قوله تعالى: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ نبأً بأن الحمد يكون لله تعالى في أوائل الإسلام ويكون الحمد له في الزمن الأخير أيضًا عند خروج يأجوج ومأجوج، فيُرسي الله حمده ومُلكه في العالم كله بالقضاء عليهم.

---

[٥] لم نعثر على رواية بهذه الكلمات، بيد أن صاحب "معالم التنـــزيل" قد نقل رواية عن ابن مسعود ﷺ تقول: "ليأتين على جهنم زمانٌ ليس فيها أحد وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا." (تفسير سورة هود: قوله تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾) (المترجم)

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧٢

شرح الكلمات:

سَرْمَدًا: السرمد: الدائمُ؛ الطويلُ من الليالي يقال: ليلٌ سرمد؛ والسرمديّ: ما لا أوّلَ له ولا آخرَ. (الأقرب)

التفسير: أي يا محمد قل للمشركين إن الليل شيء نافع بلا ريب، ولكن لو مدّه الله تعالى إلى يوم القيامة فمن ذا الذي يأتيكم بالشمس من دونه تعالى؟ فإن آلهتكم لا تقدر على تغيير ظلمة الليل إلى ضياء النهار ولو كان بعضها لبعض ظهيرًا. هذا ما أكده الله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام حين قال للملك في أثناء المناظرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(البقرة:٢٥٩)؛ إذ ليس هناك مشرك يؤمن أن أحدًا من آلهته يأتي بالشمس، فلو أن الملك قال لإبراهيم عليه السلام: لا يأتي إلهك بالشمس من المشرق بل أنا آتي بها، لثار عليه قومه الذين كانوا يعبدون الشمس والنجوم ولقالوا له: كيف تعتبر نفسك أكبر من إله الشمس حتى تدعي بهذا؟ ولذلك فلم يكن أمامه خيار إلا أن يسكت.

قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٣

التفسير: هذا الدليل أيضًا يقيم الحجة على المشركين إذ لا يرون أن صنمًا من أصنامهم أو إلهًا من آلهتهم الباطلة يجعل الشمس تغيب.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى قال في آخر الآية السابقة عند ذكر الليل ﴿أَفَلا تَسْمَعُونَ﴾ بينما قال هنا عند ذكر النهار ﴿أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾، والحكمة في ذلك أن الإنسان يعمل بالآذان بالليل أكثر من العيون، أما في النهار فيعمل بالعيون أكثر من الآذان.

وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٤﴾

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أنه قد جعل الليل والنهار برحمته العظيمة لتناموا بالليل من أجل الراحة والسكينة ولتجلبوا بالنهار فضله باكتساب المال. كما جعل ظاهرة الليل والنهار لتشكروه دائمًا، فتمتلئ قلوبكم بعواطف الشكر لله تعالى بحلول الليل ويجري ذكره على ألسنتكم عند طلوع النهار.

واعلم أن الله تعالى كما جعل في العالم المادي ظاهرة تناوب الليل والنهار، كذلك يأتي على الإنسان في العالم الروحاني أيضًا أوقات القبض والبسط. والحق أن ظاهرة القبض والبسط هذه ضرورية للإنسان من أجل رقيه الروحاني مثل الليل والنهار، فلو لم يأت عليه الليل الروحاني لتوقف رقيّه وانحطّ من مقامه. ورد في الحديث أن أحد الصحابة جاء النبي ﷺ وقال يا رسول الله، قد أصبحتُ منافقًا. فقال: كيف عرفت ذلك؟ قال: يا رسول الله، عندما أكون في مجلسكم أشعر كأن الجنة على يميني والجحيم على شمالي، وعندما أغادر مجلسكم لا أبقى على هذه الحالة. فقال النبي ﷺ: لو كنتم في حالة واحدة لَمتُّم.◈

◈ نص الحديث كالآتي: "عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّديّ قَالَ – وَكَانَ مِنْ أَصْحَاب رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم – قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللّه مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُول اللّه ﷺ، يُذَكّرُنَا بالنّار وَالْجَنّة حَتّىَ كَأَنّا رَأْيَ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّه ﷺ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ

فكما أن الله تعالى قد جعل الليل لجلب الراحة والنهارَ لكسب المعيشة، فالعاقل مَن ينتفع بالليل والنهار أيضًا، فينام بالليل ليستعيد قواه ويجدد نشاطه، ويعملُ بالنهار ليحرز المزيد من الرقي؛ كذلك قد جعل الله تعالى ظاهرة القبض والبسط أيضًا من أجل رقي الإنسان روحانيًا، ليزداد رفعة لدى تحليقه في السماء الروحانية بعد كل حالة قبض، ويزداد شكرًا على نعم الله وأياديه.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٧٦﴾

التفسير: أي اذكروا ذلك الوقت الذي يقول الله فيه للمشركين أين شركائي الذين اتخذتموهم بزعمكم؟ سنقيم من كل أمة شهيدًا يومئذ ونقول لهم هاتوا برهانكم، فيعلم المشركون عندها أن ما قال الله تعالى هو الحق، وينسون افتراءاتهم كلها.

وَالضّيْعَات، فَنَسينَا كَثيراً. قَالَ أَبُو بَكْر: فَوَاللّه إنّا لَنَلْقَىَ مثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْر، حَتّىَ دَخَلْنَا عَلَىَ رَسُولَ اللّه ﷺ. قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ. يَا رَسُولَ اللّه. فَقَالَ رَسُولُ اللّه: "وَمَا ذَاكَ؟" قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهَ نَكُونُ عنْدَك، تُذَكّرُنَا بالنّار وَالْجَنّة حَتّىَ كَأَنّا رَأْيُ عَيْن، فَإذَا خَرَجْنَا منْ عنْدكَ، عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضّيْعَات، نَسينَا كَثيراً. فَقَالَ رَسُولُ اللّه ﷺ: "وَالّذي نَفْسي بيَده إنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَىَ مَا تَكُونُونَ عنْدي، وَفي الذّكْر، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئكَةُ عَلَىَ فُرُشكُمْ وَفي طُرُقكُمْ. وَلَكنْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعةً وَسَاعةً." (مسلم: كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر) (المترجم)

لقد استعمل الله تعالى هنا صيغ الجمع فقال: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ و ﴿فَقُلْنَا﴾، وهذا الأسلوب يسمى "كلام الملوك"، حيث يتكلم الملوك بصيغ الجمع إظهارًا لقوتهم، لأن الملك حين يصدر حكمًا ينضم إليه الآخرون لتنفيذه.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ فالشهيد هنا نبيُّ كل قوم، كقول المسيح عليه السلام لله تعالى يوم القيامة: ﴿كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾(المائدة:١١٨)، وقوله تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾(المزمل:١٦)؛ ذلك لأن الشهيد يعني الشاهد والرقيب أيضًا. إذًا، فيخبرنا الله تعالى هنا أنه سيأتي بنبي كل قوم شاهدًا عليهم يوم القيامة ليُخزي المشركين بعرض نموذج نبيهم عليهم فيقول: انظروا كيف انحرفتم عن تعاليم نبيكم. لقد نهاكم عن الشرك ليلاً ونهارًا، فتناسيتم هديه وخررتم أمام الأصنام تاركين أعتاب الله تعالى.

الواقع أن الله تعالى قد جعل لكل شيء في الدنيا نموذجًا، ولا يمكننا النجاح ما لم نعمل بحسب ذلك النموذج. فمثلاً يتنازع الناس في بلادنا كل يوم في المعاملات، فيقول أحدهم لغيره مثلاً: خُذْ مني مئة روبية وابعثْ لي هذا النوع من الحنطة التي عندك، وعندما تصل إليه الحنطة يرجع إلى صاحب المحل شاكيًا أنه قد بعث إليه الحنطة من النوع الرديء، مع أنه قد طلب منه نوعًا أفضل. ومنعًا لمثل هذه النـــزاعات تحتفظ الشعوب الأوروبية عندها بنماذج من كل شيء، فتجد عندها قوارير كبيرة فيها نماذج من النوع الجيد من الحنطة والأرز والدُخن والقطن وما إلى ذلك، وقد كتبوا على كل قارورة اسم كل نوع من هذه السلع مع مواصفاتها؛ وإذا أرادوا شراء نوع من الحبوب بعثوا نموذجه إلى البائع طالبين منه أن يبعث لهم ذلك النوع من الحنطة أو الأرز؛ وعندما يُبعث إليهم هذه الغلال يقارنها الخبراء مع النموذج الذي بعثوه، فإذا لم تكن السلعة بحسب طلبهم رفضوها.

فثبت أنه لا بد لنا من وجود نموذج، لنعرف ما إذا كان الشيء جيدًا أم لا، وما إذا كان حسب طلبنا أم لا. وكما تمسّ الحاجة إلى نماذج الأشياء المادية في الدنيا، كذلك لا بد من نموذج في مجال الأخلاق والروحانية، ويبعث الله تعالى هذا النموذج إلى الدنيا على شكل الأنبياء دائمًا. فمن جعل نفسه وفقًا لهذا النموذج

حظي بالقبول عند الله تعالى، ومن لم يجعل نفسه طبقًا للنموذج رفضه الله تعالى. فبعث الله تعالى آدم إلى الناس تارة، وأعلن أن من يكون مثل آدم عليه السلام يصبح من المقبولين، ومن لم يكن مثله يصبح من المرفوضين. وتارة أخرى بعث الله تعالى نوحًا عليه السلام كنموذج للناس، وحينًا إبراهيم عليه السلام كنموذج مثالي للناس، وحينًا آخر بعث كرشنا ورام شندر نموذجًا للناس، ومرة بعث زرادشت نموذجًا للناس، وأخرى بعث أيوب نموذجًا للناس، وبعث داود وسليمان كنموذج للناس في عصرهما، وبعث المسيح الناصري عليه السلام نموذجًا للناس في زمنه، وأخيرًا بعث الله تعالى محمدًا ﷺ إلى الدنيا معلنًا أنه الأسوة للناس إلى يوم القيامة، فإذا تأسيتم بأسوته ﷺ قبلتُكم وإلا أصبحتم من المرفوضين.

هذا ما نبّه الله إليه هنا فبيّن أنّا سنأتي كلَّ قوم بنبيّهم الذي جعلناه أسوة لهم ونقول لقد بعثناه إليكم كنموذج، وتريدون الآن أن تدخلوا الجنة، ولكن لا بد أن نرى أوّلاً مدى سعيكم للتأسي بأسوته.

أما قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فبيّن فيه أنه ستغيب عنهم يوم القيامة دعاواهم العريضة التي كانوا يقومون بها في الدنيا، بمعنى أنهم ينسون عندها افتراءاتهم التي كانوا يختلقونها على ذات البارئ تعالى. والمعنى الآخر أن أعمالهم التي كان أساسها الافتراء ستذهب كلها سدًى يوم القيامة، فلن تنفعهم عباداتهم ومجاهداتهم التي كانوا يقومون بها ابتغاء مرضاة أصنامهم وآلهتهم.

إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

الكنوز: جمع الكنـــز: وهو المال المدفون في الأرض؛ وقيل: اسمٌ للمال إذا أُحرِزَ في وِعاء؛ الذهبُ والفضة؛ ما يُحرَز فيه المال كالمخزن والصندوق. (الأقرب)

مَفاتِح: قد يكون جمع مِفتَحٍ ومِفتاحٍ وهو آلة الفتح، أو جمعُ مَفتَحٍ: وهو الخزانةُ؛ الكنــزُ؛ المخزنُ. (الأقرب)

تَنُوءُ: ناءَ الرجلُ: نَهَض بجَهدٍ ومشقّة؛ وناءَ بالحِمل: نَهَض به مُثقَلاً؛ وناءَ به الحِملُ: أثقلَه وأمالَه. (الأقرب)

العُصبة: العصبة والعصابة: الجماعة من الرجال؛ وقيل: العشرةُ؛ وقيل: ما بين العشرة إلى الأربعين. (الأقرب، وفتح البيان)

التفسير: اسم قارون في التوراة هو: قُورَح، حيث ورد فيها أنه تآمر مع بعض الناس وأثار فتنة كبيرة ضد موسى عليه السلام حيث بدأ هؤلاء يعارضون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوّين للاجتماع ذوي اسم، فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما: كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب، فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؟ فلما سمع موسى سقط على وجهه، ثم كلّم قورحَ وجميعَ قومه قائلا: غدًا يعلن الرب مَن هو له ومَن المقدس حتى يقرّبه إليه، فالذي يختاره يقرّبه إليه. افعلوا هذا: خُذوا لكم مَجامِرَ، قورحُ وكلُّ جماعته، واجعلوا فيها نارًا وضعوا عليها بخورا أمام الرب غدًا، فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس. كفاكم يا بني لاوي. قال موسى لقورح: اسمعوا يا بني لاوي، أقليلٌ عليكم أن إله إسرائيل أفرزَكم من جماعة إسرائيل ليقرّبكم إليه لكي تعملوا خدمةَ مسكن الرب وتقِفوا قُدّامَ الجماعة لخدمتها. فقرَّبك وجميعَ إخوتك بني لاوي معك، وتطلبون أيضا كهنوتًا. إذن أنت وكل جماعتك متفقون على الرب. وأما هارون فما هو حتى تتذمّروا عليه؟

فأرسل موسى ليدعو داثانَ وأبيرامَ ابنَي اليآب، فقالا: لا نصعَد، أقليل أنك أصعدتنا من أرض تفيض لبنًا وعسلاً لتُميتنا في البرية حتى تترأس علينا ترؤُّسًا؟ كذلك لم تأت بنا إلى أرض تفيض لبنا وعسلا، ولا أعطيتَنا نصيب حقول وكروم؟

هل تقلع أعين هؤلاء القوم. لا نصعد. فاغتاظ موسى جدًّا وقال للرب: لا تلتفتْ إلى تَقْدمتِهما، حمارًا واحدا لم آخذ منهم، ولا أسأتُ إلى أحد منهم. وقال موسى لقورح: كُنْ أنت وكلُّ جماعتك أمام الرب أنت وهم وهارون غدًا، خُذوا كل واحد مجمرتَه واجعلوا فيها بخورا، وقدِّموا أمام الرب كلُّ واحد مجمرتَه. مئتين وخمسين مجمرة. وأنت وهارون كلُّ واحد مجمرتَه. فأخذوا كلُّ واحد مجمرته وجعلوا فيها نارا ووضعوا عليها بخورا ووقفوا لدى باب خيمة الاجتماع مع موسى وهارون، وجمَع عليهما قورحُ كلَّ الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع. فتراءى مجدُ الرب لكل الجماعة وكلَّم الربُّ موسى وهارونَ قائلا: افْتَرِزا مِن بين هذه الجماعة، فإني أُفنيهم في لحظة. فخَرّا على وجهيهما وقالا: اللهمّ إلهَ أرواح جميع البشر، هل يخطئ رجل واحد فتسخط على كل الجماعة؟ فكلّم الرب موسى قائلا: كَلِّم الجماعة قائلا: اطلَعوا مِن حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام. فقام موسى وذهب إلى داثان وأبيرام، وذهب وراءه شيوخ إسرائيل، فكلَّم الجماعةَ قائلا: اعتزِلوا عن خيام هؤلاء القوم البُغاة، ولا تمسّوا شيئًا مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم. فطلَعوا مِن حوالي مسكن قورح وداثان وأبيرام، وخرج داثان وأبيرام ووقفا في باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيهما وأطفالهما. فقال موسى: بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلني لأعمل كل هذه الأعمال وأنها ليست من نفسي: إن مات هؤلاء كموت كل إنسان وأصابتهم مصيبةُ كل إنسان، فليس الرب قد أرسلني، ولكن إن ابتدع الرب بدعةً وفتحت الأرضُ فاها وابتلعتْهم وكلَّ ما لهم فهبطوا أحياءً إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدرَوا بالرب. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكلَّ من كان لقورح مع كل الأموال. فنـــزلوا هُمْ وكلُّ ما كان لهم أحياءً إلى الهاوية، وانطبقت عليهم الأرض، فبادوا من بين الجماعة، وكلُّ إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا. وخرجت نار من عند الرب، وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قرّبوا البخورَ." (العدد ١٦: ٢ – ٣٥)

لقد اتضح مما ورد في التوراة عن هذا الحادث أن قارون وبعض أصحابه أثاروا فتنة عظيمة ضد موسى عليه السلام في برية سيناء بعد هلاك فرعون مصر، فقد رموه بمطاعن شتّى وأخذوا يقولون: كيف يحق لموسى أن يعتبر نفسه أفضل منا ويتحكم فينا، مع أن كل فرد من هذه الجماعة مقدس؟ وقالوا إن موسى قد أخرجنا من بلد فيه أنهار من لبن وعسل، وألقانا في هذه البرية، وكان وعدنا بأرض كنعان ولكنه أخلف وعده. وتخبرنا التوراة أن مئتين وخمسين شخصًا انضم إلى قارون في إثارة هذه الفتنة، ففرّق موسى بين الفئتين ودعا على قارون وأصحابه، فانشقت الأرض وابتلعت قارون وحزبه. وإذا كان بيان التوراة صحيحًا فهذا يعني أن موسى عليه السلام قد دخل في المباهلة مع قارون، فهلك الأخير.

ولكن القرآن الكريم يذكر قارون وفرعون وهامان معًا (العنكبوت:٤٠)، مما يدل أن هذه الواقعة لم تقع بعد هجرتهم من مصر بل قبلها، وأن قارون كان من بني إسرائيل، وكان يتقلد منصب وزير المالية عند فرعون وكان شخصًا ثريًا، فأخذ يقسو على قومه مزهوًا بثرائه، فظن أنه سيزداد حظوة عند فرعون كلما صبّ على قومه سوط العذاب.

لقد قلتُ كان قارون وزير المالية عند فرعون، لأن القرآن الكريم يخبرنا أنه أخذ يظلم قومه الإسرائيليين، والحق أن ثراء المرء وحده لا يدفعه لاضطهاد قومه، إلا أن منصبه في الحكومة قد يدفعه إلى ظلم قومه، ولاسيّما أن قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ يبين أن هذه الكنوز لم تكن ملكًا له بل كانت ملكًا للحكومة وكان مشرفًا عليها.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾. واعلم أن الأقفال في الزمن القديم كانت تصنع من الخشب، بل كانت تُستعمل في مكة قبل أربعين سنة أيضًا. ولو سلّمنا أن الناس في زمن فرعون كانوا يستعملون أقفال الحديد فلا بد أن تكون هذه الصناعة في مراحلها البدائية حيث كانت الأقفال ومفاتيحها كبيرة جدًا، وكان الملك إذا خرج في سفر أخذ معه المال في صناديق كثيرة لدفع أجرة العمال وشراء المؤن للجيش؛ فكان صعبًا على الجماعة

القوية حمل تلك المفاتيح الكثيرة الضخمة التي بلغ وزنها آلاف الكيلوغرامات، خاصة لو كان السفر طويلاً.

ويُحتمل أنهم كانوا يضعون المفاتيح في الصناديق التي كانت تحملها الجِمال، لأن القرآن الكريم لم يصرح أن الناس كانوا يحملون تلك المفاتيح بل قال لو حملتها جماعة قوية من الناس لشقّ عليهم حملها.. أي لم يستطع أن يحملها إلا عشرة أو اثنا عشر من الرجال الأقوياء.

ثم يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. لما كان قارون مصابًا بالكبر لكونه وزيرَ المالية وثريًا أخذ يظلم قومه إرضاءً لفرعون، فقال له قومه لا تتكبر فإن الله تعالى لا يحب المتكبرين.

وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٨﴾

التفسير: لقد قال له قومه أن يجعل بيته في الآخرة أحسن بإنفاق ماله الذي أعطاه الله إياه، دون أن يهمل نصيبه من الدنيا، لأن الدين الحق يعلّم المرء سلوك الطريق الوسط ولا يريد أن يهمل دنياه كليةً، وإنما يأمره أن يكسب دنياه ويساهم في أمور الدين أيضًا.

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يقول: يعجبني كثيرًا قول بعض الصوفية وهو:

"دست در كار ودل با يار"

أي أن الطريقة المثلى أن يباشر المرء أعمال الدنيا بيده وقلبه مشغول بذكر الله.

لقد ظن البعض في الماضي أن على المرء أن لا يشتغل بأمور دنياه فأضاعوا أعمارهم، بينما ظن البعض الآخر أن على المرء أن يقوم بمشاغل الدنيا ولا داعي

لذكر الله تعالى. وهكذا صار هناك فئتان: فئة اعتبرت الدين عبثًا، وفئة أخرى اعتبرت الدنيا عبثًا، مع أن الحق بين الاثنين؛ فالحق أن يهتم الإنسان بدنياه وبدينه معًا دون أن يُعرض عن الدنيا كليةً، ولكن ما حصل أن فريقًا اهتم بالدنيا فقط، وفريقًا اهتم بالدين فقط، ولم يتفكروا في أنه لو أراد الله تعالى منا الاهتمام بالدين فقط لما قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٨)، ولما قال أيضًا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(التوبة:١٠٣)، ولما قال أيضًا: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾(النساء:٢١)، إذ لو كان اقتناء المال ممنوعًا، فكيف يذهب المرء للحج، وكيف يؤدي الزكاة، وكيف يعطي زوجته قنطارًا من الذهب؟ لا جرم أن الله تعالى قد جعل بعض الناس نموذجًا للآخرين، فقد سمعت من المسيح الموعود عليه السلام أن شخصًا سأل بعض الصلحاء عن نصاب زكاة المال؟ فقال: إن نصابها بالنسبة لك هو أن تخرج دينارًا واحدًا على كل أربعين دينارًا. فقال: ماذا تعني بقولك "بالنسبة لك"؟ هل يتغير نصاب الزكاة من شخص إلى آخر؟ فقال الرجل الصالح: نعم، أما أنت فتدفع دينارًا على أربعين دينارًا، أما أنا فلو اجتمعت عندي أربعون دينارًا فعلي أن أدفع واحدًا وأربعين دينارًا، ذلك لأن الله تعالى أمرك بأن تكسب وتأكل، أما أنا فقد تولى الله حاجاتي؛ فإذا اجتمعت عندي أربعون دينارًا بسبب غبائي فعليّ أن أدفع أربعين دينارًا، بالإضافة إلى دينار آخر كغرامة.

إذًا، فهناك أناس من واجبهم أن يكرسوا حياتهم لخدمة الدين فقط، فعليهم بذكر الله وترديد الأوراد والوظائف وأداء صلاة التهجد والاستغفار والدعاء، أما باقي الناس فمن واجبهم أن يكسبوا الدنيا وينفقوا نصيبًا مناسبًا من مالهم ووقتهم في خدمة الدين والعبادة. وهذا نصح به بعض صلحاء قوم قارون فقالوا: نحن لا نقول لك أن تنفق كل ثروتك في سبيل الله تعالى، وإنما ننصحك أن تجعل أول غايتك الدار الآخرة لدى إنفاق أموالك، ولا بأس في أن تنفق من أجل رقيك وازدهار عائلتك فتخصص لهم جزءًا من أموالك، فهذا جائز، وإنما المحظور أن تنسى الله كلية وأن تجعل الدنيا غاية همِّك.

ثم قالوا لقارون: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.. أي عامِلِ الناس بالحسنى وساعِدْهم بمالك وعلمك ونفوذك، لأن الله تعالى قد أحسن إليك.. بمعنى أن القوى والطاقات التي اكتسبتَ بها المال والعز والنفوذ كلها مما خلقه الله تعالى ووهبك إياه إحسانًا منه؛ فمن واجبك الآن أن تحسن إلى الناس ولا تفسد في الأرض، ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾؛ ذلك لأن الله تعالى خالقُ المخلوقات وربُّها، ومن سعى ليُفسد خلقه ويدفعهم إلى التناحر والتحارب فلن يحبه الله تعالى. فمثلاً إذا كره المرء ولدًا فلن تحبه أمه. وهناك حكاية إنجليزية أن أحدًا عشق أرملة وأراد الزواج منها، ومن عادة الأوربيين أن أحدهم إذا أراد الزواج من امرأة فلا يطلب يدها من أهلها فقط، بل يحاول استمالتها أوّلاً، لأن الزواج عندهم يتم بعد الصداقة بين الفتى والفتاة، فحاول هذا العاشق استمالة الأرملة، فلم ينجح، فذكر ذلك لبعض أصدقائه، فسأله: أعندها ولد؟ قال: نعم. قال: إذًا، قد حُلّت المشكلة. عليك أن تداعب ولدها وتحتضنه، فترغب فيك تلقائيًا.

فثبت أن المرء إذا كره حبيب أحد فلن يحظى بحبه أبدًا، ولذلك قال المسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر له بالفارسية:

"خاكم نثار كوچۂ آل محمد است"

(در ثمين (فارسي) ص ٨٩)

أي ليتني كنتُ غبارًا في طرق ديار آل محمد ﷺ.

لقد كان في آل محمد ﷺ كبار الصالحين، بينما لم يَعُد بعض آله صالحين، ولكن حضرته عليه السلام يبين هنا أن من أراد حب النبي ﷺ فليحب عائلته ﷺ لأنهم أقاربه، أما إذا ظن أحد أنه سيحظى بحبه ﷺ وإن لم يحب آله فهو مخطئ.

باختصار قد نبه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أنك إذا أفسدت في الأرض فلن يحبك الله لأنه يحب عباده، ومن لم يُحبِبْهم ولم ينصح لهم فلن يحظى بحبه تعالى.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

التفسير: لما سمع قارون وعظ قومه أصابه الغرور، فقال: أتظنون أني قد حصلت على هذا المال من فراغ؟ إنما كسبته بعلمي وذكائي وجهدي. لم يفكر هذا الغبي أن العقل الذي يفكر به لم يخلقه هو، بل الله تعالى خلقه، وأن الوسائل التي يكسب بها المال لم يخلقها هو بل الله خلقها. كان تفكير قارون كتفكير إنسان هذا العصر الذي يتباهى ويقول بكل غرور إنه قد اخترع دواءً كذا واكتشف حقنة كذا، وينسى أن العناصر التي صُنع منها هذا الدواء أو الحقنة إنما هي من خلق الله تعالى. فمثلاً يتباهى باكتشافه حقنة الزُّهري، وينسى أن الفوسفور والزرنيخ اللذين يُستعملان في هذه الحقنة هما من خلق الله تعالى. ثم إن القار المستعمَل في صنع نصف الأدوية الكيماوية اليوم هو من خلق الله تعالى. وهذا يعني أنه تعالى يحسن إلى الإنسان، ولكنه يعزو كل فضل إلى نفسه. وبدلاً من أن يقدر صنيعه تعالى نراه يقول: أنا فعلت كذا بذكائي وأنا عملت كذا بجهدي؛ مع أن الله تعالى هو الذي يهيئ الوسائل والأسباب لإنجاز أي عمل، وليس هذا فحسب بل هو الذي يأتي بنتيجته أيضًا. فكم من شخص يبذل جهده طوال سنة ليتعلم الحدادة مثلاً فلا يتعلمها، وكم من إنسان يجيد حرفة ولكن لا يجد عملاً، وكم من رجل يكسب مالاً كثيرًا فيسلبه منه الصعاليك. وقد يرجع المرء إلى بيته بمال كثير، فيصاب في بطنه بوجع شديد يقتله، أو يأتي بثوب جميل ولكن يصاب جلده بمرض يمنعه من لبسه. فثبت أن كل شيء يقوم به المرء إنما يتم بفضل الله تعالى فقط، فإذا اكتسب الرزق بجهده فإنما هو هبة من الله تعالى في الواقع، فمن واجبه إذًا أن يزداد تواضعًا لله تعالى كلما نال رفعة. ألا يرى أنه كلما يوضع عليه حمل ثقيل أصبح أكثر

انحناءً؟ إذًا، فمن وجد مالاً فمثله كمن وُضع على رأسه حمل ثقيل، فعليه أن يزداد حلمًا وتواضعًا بدلاً من أن يتكبر ويحتقر الآخرين. وكل من اعتبر ماله وثراءه وعزته هبةً ربانية ازداد تواضعًا للآخرين، ومن عزاها إلى ذكائه وجهده أصابه الكبر والغرور، وابتعد عن الله تعالى في نهاية المطاف. ومن أجل ذلك لا يمنعنا الإسلام من السعي للرقي والتقدم، وإنما يقول ابذلوا ما شئتم من الجهود للتقدم، ولكن يجب أن تكونوا أكثر تواضعًا كلما أحرزتم رقيًا. أما إذا أصابكم الرقي بالزهو والغرور فلن يرضى الله عنكم بل يسخط عليكم، ولن يكون رقيكم رحمةً، بل يصبح لكم ابتلاءً وفتنة، وتُحرمون من أنوار السماء في المستقبل.

ورد في الحديث أن شخصًا جاء النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إنني في ضيق شديد، فادعُ الله تعالى أن يبسط عليّ الرزق. فدعا له النبي ﷺ، فأصبح ببركة دعائه من الأثرياء الكبار فكانت مواشيه تملأ الوادي – إن أهل المدن يصعب عليهم تربية جاموس أو بقرة واحدة أيضًا، فمن الصعب عليهم أن يصدقوا أن شخصًا واحدًا يمكن أن يملك هذا القدر من المواشي، ولكن الذين يعيشون في القرى يعرفون أن الرجل الواحد يملك الكثير منها. فذات مرة ذهبت لزيارة ضيعات جماعتنا بالسند، فرأيت هناك قطيعًا كبيرًا يضم ما بين ثلاث مئة وأربع مئة من الأنعام، فسألت: هل هذه المواشي لأهل هذه القرية؟ فقال مدير ضيعتنا متبسمًا: إن هذا القطيع لشخص واحد – فأرسل النبي ﷺ بعض صحابته إلى هذا الشخص الثري ليأخذ منه زكاة مواشيه، فلما طلب الرسول منه زكاتها أجاب: ما هذا؟ ليس عندنا ما نطعم به المواشي وإن هؤلاء لا يفكرون في مشاكلنا وهمومنا، بل لا همَّ لهم إلا جمع التبرعات. فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ قال: لن نقبل منه الزكاة أبدًا. فقيل للرجل: أيها الشقي لقد أصبحت ثريًا ببركة دعاء النبي ﷺ، وقد رفضت أداء الزكاة له؟ فندم وجاء النبي ﷺ بمال الزكاة، فقال ﷺ: لن نقبل منك الزكاة الآن. فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه، ثم عاد إلى النبي ﷺ في السنة التالية بالزكاة، ولكن النبي ﷺ رفض أن يأخذ ماله. ولم يزل الرجل يأتي النبي ﷺ بمال الزكاة كل سنة، وكان ﷺ يرفض ماله كل مرة حتى توفي ﷺ. فأتى أبا بكر ﷺ بصدقته، فقال له: لم

يقبلها رسول الله ﷺ وأقبَلُها؟ يبدو أن الرجل كان في قلبه شيء من الصلاح فكان يأتي بالزكاة كل سنة، ولكن لم تُقبل منه. (مجمع البيان للهيثمي، كتاب التفسير، سورة البراءة)

ومن الناس مَن إذا تقدم لامتحان كتب إلينا طالبًا الدعاء لينجح فيه ويتقلد منصبًا مرموقًا، وإذا حصلت له بُغيته أخذ يبتعد عن إخوانه الأحمديين، فتارة يقول إن المجتمع الأحمدي ليس مجتمعًا راقيًا، وتارة أخرى يقول ليس عند الأحمديين مال، وتارة ثالثة يقول ليست بيوتهم أنيقة، وينسى أنه كان يطلب منا الدعاء في يوم من الأيام. إن هذا التصرف يدل أن قلوب هؤلاء خالية من الإيمان إذ لو كانوا مؤمنين حقًّا لخدموا الدين وأهله وجماعته و لم يصابوا بالكبر والغرور.

لقد رأيت أن الفقراء هم أكثر تواضعًا وانكسارًا، ولذلك يدخل الفقراء في جماعة الأنبياء عادة، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى يريد أن يظل هؤلاء فقراء دائمًا، وإنما يوفق الفقراء لخدمة دينه لأنهم بريئون من الطمع والجشع وهم أكثر شكرًا لله تعالى. لا شك أنه يوجد في جماعتنا أثرياء؛ بعضهم مخلصون، وبعضهم يرضون بما نقول إذا ضغطنا عليهم، ولكن بعضهم يهربون من أداء التبرعات، وإذا جلسوا في مجلس قالوا: ما هذه المصيبة؟ لماذا تطالبنا الجماعة بالتبرعات دائمًا؟ أما الفقير الذي دخله خمس وعشرون روبية شهريًا فقط فيدفع التبرعات، وتأخذه الحيرة من الثري الذي لا يدفع التبرعات مع أن دخله ألفان ونصف الألف شهريًا!

إنما السبيل للتخلص من هذه النقائص أن يقدر المرء نعم الله تعالى ويذكر أياديه دائمًا. أما الذي يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾، أو الذي يهرب من أداء التبرعات قائلاً إننا في ضيق من قبل فكيف ننفق في سبيل الدين، أو الذي يقول متضايقًا: لماذا نطالَب بالتبرعات دائمًا، فهؤلاء يُحرمون من بركات الله تعالى. إنما ينال نصيبًا من بركات الله تعالى من اعتبر كل ما يكسبه وكل زيادة تحدث في دخله فضلاً من الله تعالى، سواءً كان دخله روبية أو عشرين أو مئة أو ألفًا. ومثل هذا الإنسان إذا طولب بالإنفاق في سبيل الدين فلن يعتبره مصيبة لأنه يعلم أن كل ما عنده ليس مِلكًا له، إنما هو عطية من الله تعالى. إذا ترك المرء عندك أمانة، ثم

جاءك يطلبها، فهل تعتبر ردّ أمانته له مصيبة؟ كذلك لو أيقنتَ في قلبك أن كل ما عندك من مال إنما أعطاك الله بفضله، فلن تتردد في إنفاقه في سبيله تعالى أبدًا، لأنك ستؤمن بأنه ليس ملكًا لك بل هو لله تعالى. ومثاله ما يفعله أهل بلادنا، فإن أحدًا منهم إذا أراد أن يخرج في سفر لبضعة أيام ترك بقرته عند جاره قائلا: اشربْ لبنها في غيابي وسآخذها عندما أعود من السفر. وكل إنسان شريف يردّ البقرة لصاحبها عند عودته شاكرًا إياه بأنه قد انتفع منها كثيرًا، ولئيمٌ من يقول في نفسه: لماذا يسترد مني الآن بقرته، ولماذا لا يدَعها عندي؟

بيد أن هناك فرقًا كبيرًا، وهو أن الناس إذا تركوا أمانة عند أحد استردّوها كاملةً، أما الله تعالى فلا يسترد أمانته كلها بل يأخذ جزءًا منها. إذًا، فإن الله تعالى مؤتمِن فريد من نوعه، ولا شك أن الذي يتضايق عند سؤال الله تعالى إياه فهو لئيم حقير، إذ انتفع بنعم الله تعالى ليلَ نهارَ وإذا طلب الله منه شيئًا أخذ يصرخ ويصيح بأن الله ظلمني! الحق أن كل هذه الأمور إنما هي نتيجة لنكران نِعم الله تعالى وأفضاله، ولذلك قد نبهنا الله تعالى مرارًا بأن نتذكّر أفضاله ونشكره على نعمه دائمًا، ذلك لأن الإنسان إذا اعتبر كل ما عنده عطاء من الله تعالى وقدَّر نعمه اكتمل إيمانه.

وردّ الله ﷻ على قول قارون هذا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾. وهذا دليل على أن ثروة قارون لم تكن ثروة شخصية وإلا لقال الله تعالى كم من ثري كبير دمرناه قبله، ولكنه تعالى يذكر هنا الأمم الثرية القوية التي دمرها، مما يدل أن الثروة التي حازها قارون كانت ثروة قومية.. أعني أنه كان مسؤولاً كبيرًا في الحكومة المصرية وليس الحديث هنا عن ثروته الشخصية.

أما قول الله تعالى: ﴿وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ فبيّن فيه أن المجرم يُعرف بأعماله ولا تكون ثمة حاجة لسؤاله، ذلك أن العقاب الذي ينـــزل من عند الله تعالى يكون عقابًا طبيعيًا يدل بنفسه على أن المجرم قد استحقه فعلاً. مثلاً لو فقد أحد بصره لعدم استعماله عيونه، أو صار مشلول الأيدي والأرجل لعدم استعماله

إياها، أو فقد قوة التدبر والتفكر لعدم استعماله عقله، أو صار محرومًا من الهدى لإنكاره التعاليم الحقة، لعلِم الجميع أن عقابه بحسب أعماله ولن يعترضوا على عقابه.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨١﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

وَيْكَأَنَّ: وَيْ كلمةُ تعجُّب، يقال: وَيْ لزيد، أي أعجب به، ويكنى بها عن الويل، تقول: وَيْكَ اسمعْ قولي، وتدخل على كان المخففة والمشددة. (الأقرب)

التفسير: قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يعني أن قارون خرج يومًا في أُبهته بين الحاشية والحراس ليتباهى أمام قومه بما يتمتع به من سلطة وعزة ونفوذ، ليُريهم كيف يسعى الناس ليؤدوا له مراسم التبجيل والاحترام حتى يحظوا بقربه. وقد فعل ذلك ليُهين قومه ويؤكد لهم أن النجاح في طاعة فرعون.

كان فرعون عدوًا لدودًا لبني إسرائيل وأراد القضاء عليهم نهائيًا، ومن الطرق التي اتخذها لتحقيق هدفه أنه جعل أحدًا منهم – وهو قارون – مسؤولاً في حكومته، وكان في ذلك غرضان: أحدهما أن يتظاهر أنه يقدّر أهل الكفاءة من بني إسرائيل، وثانيهما أن لا يُنسب إليه الظلم الذي يصبّه قارون على قومه، وإنما يقول الناس لم يظلمهم إلا واحد منهم، فما ذنب فرعون في ذلك؟ وهي نفس الإستراتيجية التي اتبعها الإنجليز إبان حكمهم على الهند، إذ وضعوا الهنود أنفسهم في بعض المناصب الصغيرة، فظلموا قومهم أكثر من الإنجليز الحاكمين ليُرضوهم. وكان قارون أيضًا من قبيل المسؤولين الظالمين إذ كان يطمح دائمًا لإهانة قومه بني إسرائيل بغية إرضاء فرعون، فخرج يومًا في موكب مع حاشيته وعماله، وأمر بني إسرائيل بالاجتماع في مكان ليروا موكبه ويبكوا على هوانهم وقلة حيلتهم.

ثم يقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. اعلم أن كل قوم يوجد بينهم بعض الضعفاء الذين يحبون عزة الدنيا وثروتها ويؤثرونها على الدين والورع والتقوى. فلما رأى الضعفاء من بني إسرائيل موكب قارون غبطوه، وأخذوا يقولون: ليتنا كنا مثل قارون، إنه لذو حظ عظيم إذ نال النفوذ والسلطة لهذه الدرجة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.. أي لما أثنى الضعفاء على قارون، بل تحسّروا على حرمانهم مما عند قارون من عزة ومنعة نصَحهم أولو العلم منهم.. أي العلماء الربانيون منهم.. وقالوا لماذا تموتون حسرةً من أجل هذه الحياة التي هي أيام معدودة وستنتهي لا محالة، إنما الحياة الأبدية التي تبدأ بعد الموت والتي سينال فيها المؤمنون الذين يعملون

بحسب إيمانهم جزاءً لا تساوي أمامه مُتع الدنيا وزينتها شيئًا. ماذا ينفعكم لو عشتم في الدنيا عيشة رخاء مئة سنة و لم يكن لكم شيء من الراحة في الحياة الآخرة غير المحدودة؟ فاسعوا لنيل الراحة الأبدية، ولا تركنوا إلى الدنيا ومُتعها.

أما قوله تعالى: ﴿وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾ فبيّن فيه أن ثواب الآخرة كما هو عظيم فهو يتطلب من المرء تضحية عظيمة، ولا يُلَقّاها إلا الصابرون. والصبر لا يعني ترك الجزع والفزع عند حلول بليّة فحسب، بل يعني أيضًا مقاومة الأفكار السيئة والثبات على الخير (الأقرب). إذًا، فقد نصحهم الربانيون منهم بإيثار الدين على الدنيا محذرين إياهم أنهم لن يتبوأوا هذا المقام إلا إذا قاوموا التأثير السيئ الذي تولد في قلوبهم برؤية ما يتمتع به قارون وأمثاله من مجد مادي، وتجنبوا دائمًا السيئات و لم يسلكوا طريق الظلم كقارون، وثابروا على الحسنات، وعندها ستتفتح عيونهم الروحانية فيدركون أن الدنيا حقيرة ذليلة إزاء الحياة الآخرة.

ثم يقول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.. أي لما تجاوزت مظالم قارون الحد حلّ به العذاب. كان مصدر اضطهاده لبني إسرائيل تلك العزة والمنعة التي كان يتمتع بها بسبب رضا فرعون عنه، ولكن الله تعالى لما أراد إهلاكه صار فجأةً ذليلاً مهانًا مع عائلته. ورد في التوراة أن الأرض انشقت وابتلعت قارون وجنوده (عدد ١٦: ٣١-٣٢)، هذا يعني أنه هلك نتيجة زلزال. علمًا أن الخسف يعني الدفن في الأرض، ويعني أيضًا الخزي والإهانة حيث يقال: "خسَف فلانًا: أذلّه وحمّله ما يكرهه" (الأقرب)، وهذا هو المراد هنا بقوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾.. أي ضربنا عليه وعلى عائلته الذلة في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ﴾ فالمراد أنه أصبح ذليلاً صاغرًا في البلاد بحيث لم يرد أحد ذكر اسمه و لم يخرج أحد لنصرته.

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ فاعلم أن الانتصار هو الامتناع من العدو (الأقرب)، وعليه فالمراد أنه لم يستطع الخلاص من الخزي والهوان باتخاذ تدبير خارجي، كما لم يستطع إنقاذ نفسه من الدمار بعلمه الذي كان يزهو به.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.. أي لما حل عذاب الله بقارون انفتحت عيون القوم الذين كانوا يغبطونه قائلين ليت لنا مثل ما لقارون من مكانة مرموقة، واعترفوا بأن الله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيّقه على من يشاء، ولولا أن الله تعالى أحسن إلينا وعفا عنا خطيئة الاغتباط بقارون لشمَلنا العذاب الذي حل به و لم يبق لنا أثر.

وقد تبين من ذلك أن من قام بنصرة المجرمين ومساندتهم أو الدفاع عن جرائمهم أو مخالفة الذين يرفعون الصوت ضدهم استوجب العذاب، ولو لم يتب ويستغفر ويغيّر سلوكه ظل في خطر أن يشمله العذاب أيضًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فبيّن فيه أن معارضي الأنبياء يحرزون نجاحًا مؤقتًا في الدنيا، ولكن الفلاح – الذي يعني إصابة الهدف – لا يكون حليفهم أبدًا، بل يهلكون حتمًا.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه قد جعل نعم الحياة الآخرة خالصةً للذين لا يريدون أن يتكبروا في الأرض بإهانة الناس ولا يرغبون في الفتنة والفساد. ولا شك أن الناس يظنون في البداية أن النجاح والعز محال باتباع سبيل السلام، وإنما سبيله إسقاط الآخرين وإثارة الفتنة في البلاد. ولكن لا ينال العز في نهاية المطاف إلا المتقون، ولا تكون العاقبة إلا لأهل الصلاح الذين يحبون السلام. أما الذين يثيرون الفتنة والفساد في الأرض فقد يحرزون النجاح المؤقت إلى حد ما، ولكن عاقبتهم تكون وخيمة، ويعاقَبون على أعمالهم في الدنيا، ثم يكونون في الآخرة من الصاغرين المهانين.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا قانونه عن جزاء الحسنة والسيئة، فبين أن الذي يعمل حسنة يجزى بأكثر مما عمل، وأن الذي يعمل سيئة فلن يجزى إلا بقدرها.

والحق أن الحسنات التي يعملها الإنسان إنما يعملها مستعينًا بما وهبه الله تعالى من قوى وكفاءات، فلو لم يُعطَ على حسناته أي جزاء لم يكن هناك محل للاعتراض، إذ إن الأسباب التي استعان بها في فعل الخير إنما هي من خلق الله تعالى. فهو – مثلاً– لم يخلق يده التي يعمل بها عملاً حسنًا، بل الله خلَقها، كما لم يخلق القوة الكامنة في يده لإنجاز أي شيء، إنما هي من خلق الله تعالى. فإذا سقى بعضَ العطاشى مثلاً، فإن الماء الذي سقاه هو من خلق الله، والكوب الذي سقى به هو مصنوع بمادة خلقها الله أيضًا، ثم إن العقل الذي دفعه إلى هذا الخير أيضًا من خلق الله. فما دام كل شيء هو من خلق الله تعالى، وما دامت القوى التي يعمل بها المرء عملاً حسنًا هي هبة ربانية، فلا يستحق على أعماله أي جزاء في الواقع حتى ولو ضحى بحياته في سبيله تعالى، لأن الله هو خالق الإنسان ومالكُ كل الأشياء التي يملكها. ونعم ما قال الشاعر "غالب" بهذا المعنى في قوله باللغة الأردية:

جان دی، دی ہوئی اسی کی تھی

حق تو یہ ہے کہ حق ادا نہ ہوا

(شرح ديوان غالب ص ٨٣)

أي لو ضحى المرء بحياته في سبيل الله تعالى فأيضًا لا يمكن أن يسمى فعلُه تضحيةً لأنه تعالى هو الذي وهبه الحياة، ومَثَلُه في الحقيقة كشخص ردَّ الشيءَ لصاحبه بعد أن استعمله سنوات طويلة. إذًا، فلا بد للإنسان من أن يشكر الله تعالى في هذه الحالة أيضًا، ولا يحق له الادعاء بأنه قد قام بتضحية.

وبرغم أن المرء لا يقوم بأي حسنة إلا بفضل ما أعطاه الله من قوى ولو لم يُجْزَ عليها لما كان ثمة حرج، إلا أن الله تعالى لا يمارس مالكيّته لهذه القوى والأشياء بحيث يحرم الإنسان من جزاء أعماله، بل يعامله كأنه قد قام بها بقوة ذاتية أو بأسباب أوجدها بنفسه، ثم لا يجزيه الله على حسناته جزاء مساويًا لها بل يزيد في الجزاء كثيرًا. أما الذي يعمل السيئة فإن الله تعالى يقبل توبته ويعفو عنه، وإذا لم يتب فيجزيه بقدر معصيته فقط. وكأن الله تعالى يعامل الأبرار بإحسان، ويعامل الآثمين بإنصاف حيث يجزيهم بقدر آثامهم لا أكثر منها.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٦﴾

التفسير: يذكر الله تعالى الآن أهم حدث في حياة الرسول ﷺ كنبوءة بأن معارضي الأنبياء سيهلكون حتمًا مهما بلغوا من القوة، وأن المؤمنين سينتصرون لا محالة، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. أي أن الله الذي أنـــزل عليك القرآن وفرض على الناس طاعته يحلف بنفسه أنه لا بد أن يعود بك إلى المكان الذي يعود إليه الناس مرة بعد أخرى. وما هو ذلك المكان الذي يعود إليه الناس مرارًا؟ إنه ذلك المكان الذي جعلناه: ﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾(البقرة:١٢٦).

واعلم أن الله تعالى لو قال هنا: "لرادُّك إلى مَثابة" بدلاً من قوله: ﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ لم يبق هناك خفاء في الأمر، ولكنه تعالى استعمل لفظ ﴿مَعَادٍ﴾ وهو مرادف لمثابة، وهكذا أدلى بالنبوءة بدون أن يزول منها عنصر الخفاء أيضًا.

فالله تعالى يقول هنا لنبيه ﷺ حالفًا بذاته بأني سأعود بك ثانية إلى هذا المقام الذي يأتي إليه الناس بنية الحج والثواب.. أي إلى مكة المكرمة. والبديهي أنه لا يعاد بالمرء إلى مكان إلا إذا كان قد غادره، أما الذي لم يغادره فكيف يعاد به إليه؟

فثبت أن هذه الآية تتضمن نبوءتين عظيمتين: أولاهما: أن النبي ﷺ سيضطر للهجرة من مكة، وثانيتهما: أنه سيرجع إليها بعد الهجرة فاتحًا منتصرًا.

كانت هذه الآية تُعتبر بالغة الأهمية في القرون الأولى للإسلام حتى وقع بعض الحمقى بسببها في خدعة كبيرة، حيث إن عبد الله بن سبأ – الذي أثار فتنة كبيرة في الإسلام وقاد الحركة المعادية لعثمان والتي قتلته وحاربت عليًا، رضي الله عنهما– كان يستنتج من هذه الآية أن الإسلام يقول بالتناسخ، فكان يزعم أن المراد من ﴿مَعَادٍ﴾ هنا هو الدنيا وأن هذه الآية تعني أن الله تعالى سيعود بنبيه إلى الدنيا ثانية. (الطبري: سنة ٣٥)

لا شك أن الذين يكونون أمثال الأنبياء وأظلالهم يُبعَثون إلى الدنيا دائمًا كونهم أحق بذلك من غيرهم. فإذا كان المثل الإنجليزي history repeats itself – التاريخ يعيد نفسه – حقًّا فلا شك أن الأنبياء يظهرون في الدنيا مرة بعد أخرى ظهورًا مجازيًا وسيظهرون هكذا في المستقبل، إذ لو كان هناك شيء جدير بالإعادة فهو الشيء النافع، بيد أن هذه الآية لا تقول بالتناسخ أبدًا، كما أن كلمة ﴿مَعَادٍ﴾ أيضًا لا تعني هذه الدنيا، بل إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ إنما هو نبوءة بأن محمدًا ﷺ سيهاجر من مكة – التي جُعلت مركزًا للعبادة والتي يأتي الناس إليها مرة بعد أخرى للحج والعمرة – ثم يعود إليها ثانية.

وهذا يعني أن الله تعالى قد أخبر نبيه ﷺ وهو لا يزال في مكة أن الكافرين سيُخرجونه من وطنه في يوم من الأيام، ولكن الله الذي أنـــزل عليه القرآن وفرضه على الناس يُقسم بنفسه أنه سيعود بنبيّه إلى وطنه بعد أن يخرجه العدو منه.

انظرْ إلى روعة إخبار الله تعالى نبيَّه بالهجرة، فبدلاً من أن يخبره أنه سيضطر للهجرة في يوم من الأيام فيصيب قلبه ﷺ بالصدمة؛ بشّره بالعودة إلى هذا المكان ثانية، وحيث إن عودة المرء إلى مكان يعني أنه قد خرج منه أولاً، فكان في بشارة عودته إلى مكة نبأٌ بأنه سيهاجر منها في يوم من الأيام، وهكذا تتحقق مماثلته ﷺ بموسى عليه السلام.

لا شك أن علماء المسلمين متفقون على أن سورة القصص هذه مكية، ولكن المستشرقين المسيحيين أيضًا يعتبرونها مكية (تفسير القرآن لويري)؛ وهكذا قد شهد هؤلاء الأعداء بأنفسهم على صدق محمد ﷺ، وبيان ذلك أنه إذا كانت هذه السورة مكية فكيف علِم محمد ﷺ مسبقًا أنه سيهاجر من مكة ثم يدخلها فاتحًا منتصرًا؟ فما دام النبي ﷺ يجهل ما يخفيه له المستقبل، ثم يدلي بهذه النبوءة التي تحققت فعلاً، فلا شك أنها دليل ساطع على صدقه. فالحق أن هؤلاء المستشرقين المسيحيين قد وقعوا في المأزق باعتبار هذه السورة مكية، إذ أكدوا بذلك على صدق النبي ﷺ. ولو أنهم قالوا إنها سورة مدَنية لقال قائل إن محمدًا ﷺ أدلى بهذه النبوءة بعد أن نال القوة في المدينة، ولكن المستشرقين قد اعتبروا هذه السورة مكية وبالتالي قد أكدوا بأنفسهم على صدقه ﷺ.

والغريب أن بعض المفسرين المسلمين اعتبر بعض آيات هذه السورة مدَنية، ولكن المستشرقين يعتبرونها كلها مكية، وبالتالي يؤكدون صدق الإسلام. إن بعضًا منهم يتباهون عادة بأنهم يعرفون بأسلوب السورة ما إذا كانت مكية أو مدنية، وإذا كان ادعاؤهم هذا صحيحًا أفليس مما يدل على فضل القرآن الكريم أن الله تعالى قد أنـــزل فيه هذه السورة التي تضمنت نبأً الهجرة بأسلوب جعَل هؤلاء المستشرقين المسيحيين يعتبرونها مكية، فكان هذا اعترافًا منهم بصحة نبوءة الهجرة والفتح التي نـــزلت في القرآن الكريم في الفترة المكية. إذ لو كان هذا الكتاب افتراءَ بشرٍ فكيف علِم أنه سيأتي المستشرقون من أمثال ويري ونولدكه بعد القرآن بقرون، فيعتبرون سُوره مكيةً أو مدنيةً بالنظر إلى أسلوبها، فيجب أن يؤلف هذه السورة بأسلوب يجعلهم يعتبرونها مكية بدون تردد.

ثم أليس عجيبًا أن الذي أنـــزل القرآن الكريم في زمن محمد ﷺ كان يعلم الاعتراضات التي سيثيرها المستشرقون النصارى في القرن العشرين، بينما لم يعرف هؤلاء النصارى أنفسهم كيف سيقومون بتفسير هذه الآيات. إنهم يطعنون في آية ما، فنفسرها بما يدحض طعنهم تمامًا، فينكشف فضل القرآن الكريم وصدق الرسول ﷺ على العالم، مما يشكل دليلاً أن القرآن الكريم ليس من تأليف بشر، بل

قد أنــزله عالم الغيب، وأنه مليء بأخبار الغيب بحيث تنطوي كل آية منه على خبر من الغيب. وكما يقال بلغتنا: "تحت كل حجر شيء"، كذلك إذا أخذت أي آية من القرآن الكريم وجدت تحتها معجزة، وهكذا سيتأكد لك أن القرآن الكريم زاخر بالمعجزات.

واعلم أن نبأ هجرة النبي ﷺ لم يرد في هذه الآية وحدها، بل هناك آيات أخرى في السور المكية قد أنبأت عن هجرته بكل وضوح. فمثلاً قال الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة البلد وهي مكية ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾(البلد:٢-٣).. أي أُقدّم بلدة مكة دليلاً على بطلان دعاوى الكافرين، وأُعلن أنك يا محمد ستحل في هذه البلدة في يوم من الأيام مظفرًا منصورًا.

وهناك آية أخرى تنبأت عن هجرته ﷺ وعودته إلى مكة المكرمة منتصرًا وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء:٨١).. أي يا رب، اجعَلْ عودتي إلى مكة ناجحة مباركة وآية باقية، واجعل خروجي منها أيضًا ناجحًا مباركًا وآية باقية، واكتب لي الغلبة من عندك، واجعل أعدائي من المغلوبين.

يثير البعض هنا اعتراضًا ويقول: لماذا ذكر القرآن الكريم الدخولَ أوّلاً مع أن محمدًا ﷺ خرج من مكة أوّلاً ثم دخلها؟ كان المفروض أن يقال "رب أخرِجْني مُخرَجَ صدقٍ وأدخِلْني مُدخَلَ صدقٍ" عوضًا عن يقال: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

والجواب أن من سنة الله ﷻ أنه لا يخوّف أنبياءه بل يضيء لهم بارقة الأمل واليقين دائمًا. فلو قال الله تعالى هنا "رب أخرِجْني مُخرَجَ صدقٍ" لأصيب نبيه ﷺ بالصدمة والقلق ولقال في نفسه: لا أدري ما إذا كان خروجي من مكة مؤقتًا أم للأبد؛ ولذلك بشّره الله تعالى بدخوله فيها قبل خروجه ليطمئن قلبه ويعلم أن خروجه مؤقت إذ يريد الله تعالى أن يعود به إليها ثانية.

أما قوله تعالى: ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ و﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾، فاعلم أن الصدق إذا نُسب إلى شيء دلّ على عظمته وروعته. فكأن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ هنا أن يدعو:

رب اجعل خروجي من مكة ودخولي فيها حدثًا تذكاريًا تذكره الدنيا إلى يوم القيامة. وما أروع ما حقق الله به دعاء رسوله ﷺ! وكم كان خروجه رائعًا، وكم كان دخوله عظيمًا. فعندما خرج النبي ﷺ من بيته كان الكفار يحاصرونه، ولكنه خرج أمام أعينهم بكل شجاعة حتى رأوه وهو يمر من بينهم ولكن لم يخطر ببالهم أنه محمد بل ظنوه شخصًا آخر، وظلوا يطلّون من خلال الباب داخل بيته طوال الليل. وكان علي رضي الله عنه نائمًا في سريره ﷺ، فلم يخطر ببالهم أنه قد خرج بل ظنوا أنه نائم في سريره. وفي الصباح نهض من السرير علي رضي الله عنه بدل محمد ﷺ، فكانت آية عظيمة.

ثم ذهب النبي ﷺ واختفى في غار ثور الواقع على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال من مكة. وقد ذهبت إلى جبل ثور بنية أن أرى ذلك الغار، ولكن في قلبي شيء من الضعف يمنعني من صعود الجبل، وقد حاولت الصعود فعلاً، ولكن لم أقدر على ذلك بعد حوالي مئة قدم. فقلت لبعض زملائي أن يصعد ويرى المغارة ويصفها لي. فمما حكى لي أنها مغارة كبيرة تسع عدة أقدام، وأنها واسعة من مدخلها أيضًا وكأنها غرفة تبلغ عدة أقدام طولاً وعرضًا.

المهم أن النبي ﷺ خرج مع أبي بكر بالليل واختبأ في تلك المغارة. وفي الصباح علم أهل مكة بغيابه، فقرروا بعد التشاور ملاحقته، وجعلوا لمن يأتي بمحمد مكافأة قدرها مئة من الإبل، ثم خرجوا على آثارهما مع قصّاص الأثر. فتتبع قصّاص الأثر أثرهما وذهب بهم إلى مدخل غار ثور، وقال إن محمدًا إما مختبئ هنا أو صعد إلى السماء. وبرغم أن أهل مكة كانوا يثقون بقصّاصي الأثر كثيرًا، إلا أنهم لم يصدّقوه، فلم يتجاسروا على أن يتقدموا وينظروا في المغارة مع أنها كانت تسع عدة أقدام طولاً وعرضًا، وكان مدخلها واسعًا.

فما أعظمَها من آية أظهرها الله تعالى! إذ لم يصدّقوا قول قصّاص الأثر، بل ضحكوا عليه واعتبروا قوله ضربًا من الهذيان. لقد كانوا قريبين جدًا من النبي ﷺ حتى أحس أبو بكر بالخطر وهمس في أذن النبي ﷺ معربًا عن قلقه، فقال له النبي ﷺ: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.. أي إذا كان هؤلاء قد أتوا ووقفوا على رؤوسنا فإن

الله معنا، فلن يرونا أبدًا؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، إني لا أخاف على نفسي لأني إنسان عادي، ولئن قتلوني سيهلك شخص واحد، ولكنهم لو أصابوك بأذى فإن العالم كله سيهلك. فظل الكفار يتكلمون عند مدخل المغارة بعض الوقت، ثم عادوا أدراجهم إلى مكة. وفي اليوم الثالث خرج النبي ﷺ وغادر إلى المدينة. (السيرة النبوية، البخاري: كتاب المناقب، باب مناقب المهاجرين)

فكم كان خروج النبي ﷺ من مكة رائعًا! والحق أن كل ذلك قد تم ببركة الدعاء الذي علّمه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.. أي إذا أخرجتَني يا رب من مكة فأخرِجْني بحيث يصبح خروجي منها حدثًا رائعًا يذكره الناس إلى يوم القيامة. هل يمكن أن ينسى المرء هذا الحادث؟ لقد جاءوا لاغتيال محمد ﷺ في بيته وضربوا الحصار حول بيته، ولكنه خرج من بينهم يشق صفوفهم دون أن يفطنوا له. ثم خرجوا على آثاره مع قصّاص الأثر، فيقول لهم بكل ثقة إما أن محمدًا موجود في المغارة أو صعد إلى السماء. ولكنهم لا يصدقونه رغم ثقتهم به، ولا يبحثون عنه في المغارة، بل يرجعون أدراجهم مستهزئين بقصاص الأثر ضاحكين على عقله.

ثم إن دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أيضًا قد تحقق بشكل رائع. كان أهل مكة ذوي قوة ومنعة، ولكن الله تعالى كسر شوكتهم تمامًا وأدخل محمدًا ﷺ في مكة فاتحًا منتصرًا بحيث إن ألد أعدائه أصبحوا خاضعين منقادين له. كانت هند تعادي الإسلام عداءً شديدًا حتى إنها مثلت بحمزة رضي الله عنه حيث بقرت بطنه وأخرجت كبده وقطّعته، وكان النبي ﷺ قد أمر بقتلها، ولكنها اختفت ثم جاءت متنكرة بين النساء اللواتي جئن للبيعة يوم الفتح. فلما قال لهن النبي ﷺ في أثناء البيعة: قلن لن نشرك بالله، لم تملك هند نفسها وقالت: يا رسول الله، هل نشرك بالله تعالى بعد كل هذا؟ كنا ذوي مال وكنتَ فقيرًا، وكنا ذوي أنصار وكنت وحيدًا، لو كانت أصنامنا تملك شيئًا لما انتصرت علينا. فغلبتك علينا رغم ما كنا

نتمتع به من مال وقوة وأنصار ونفوذ، لدليلٌ واضح على أن أصنامنا لا تملك شيئًا.*

هذه هي الآية العظيمة التي ظهرت على يد النبي ﷺ يوم فتح مكة، والتي أنبأ الله عنها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

هذا، وعندما نفحص الصحف السابقة نجدها أيضًا تنبئ بأن محمدًا رسول الله ﷺ سيضطر للهجرة من وطنه مكة، ثم يعود ويدخل فيها فاتحًا منتصرًا وفي رفقته عشرة آلاف قدوسي. وقد وردت هذه النبوءة في سفر إشعياء كالآتي: "وحيٌ من جهة بلاد العرب. في الوعر في بلاد العرب تَبيتينَ يا قوافلَ الددانيين. هاتُوا ماءً لملاقاة العطشان، يا سكانَ أرضِ تَيْماءَ، وافُوا الهاربَ بخُبزٍ؛ فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيد: في مُدّة سنة كسنة الأجير يفنى كلُّ مجد قيدار. وبقيةُ عددِ قسيِّ أبطالِ بني قيدار تقلُّ، لأن الربَ إلهَ إسرائيل قد تكلَّمَ." (إشعياء ٢١: ١٣- ١٧)

تخاطب هذه النبوءة قافلةَ الددانيّين سكّانَ أرض تَيماء بأن يخرجوا بالخبز والماء لاستقبال القوم الذين ظلوا عرضة للاضطهاد تحت السيوف المسلولة والأقواس المشدودة من قبل معارضيهم فترة طويلة، وقد هربوا الآن لاجئين إلى بلادهم.

و"ددان" اسم أحد أحفاد إبراهيم عليه السلام الذي كان من ابنه "يَقْشان" المولود من زوجته الثالثة "قَطُورة" (التكوين ٢٥: ١-٢). وأما تَيماء فهو الابن التاسع لإسماعيل عليه السلام ، وأما قيدار فهو ابنه الثاني (أخبار الأيام الأول ١ : ٢٩-٣٠). ويتضح من التوراة أن بني إسماعيل وبني قَطورة سكنوا في الشرق.. أي في الجزيرة العربية (التكوين ٢٥: ٦). وبالفعل قد سكن أولاد "ددان" أوّلاً في اليمن، ثم انتشرت قبائلهم في مختلف أنحاء الجزيرة العربية وكان منهم قبيلتا الأوس والخزرج. وكذلك سكن أولاد تَيماء

* هناك رواية تنسب هذا المعنى إلى زوج هند أبي سفيان حيث ورد أن الزبير بن العوّام قال لأبي سفيان يوم الفتح حين كُسر صنمُ هُبَل: "يا أبا سفيان، قد كُسر هُبَل! أما إنك قد كنتَ منه يومَ أُحُد في غرور، حين تزعم أنه قد أنعمَ! فقال أبو سفيان: دَعْ هذا عنك يا ابنَ العوّام، فقد أَرَى لو كان مع إلهٍ محمّدٍ غيرُه لكان غيرَ ما كان." (كتاب المغازي للواقدي: شأن غزوة الفتح ج ٢ ص ٨٣٢) (المترجم)

في المدينة وضواحيها. أما أولاد قِيدار فسكنوا في مكة وضواحيها، وقريش من نسلهم. (البداية والنهاية: ذكر أخبار العرب، وتاريخ ابن خلدون: الجزء الثاني، الخبر عن بني عدنان وأنسابهم)

لقد قال النبي إشعياء في هذه النبوءة لذرية ددان وتيماء المقيمة في المدينة وما حولها أنه سيأتي زمان يهاجر فيه محمد رسول الله ﷺ مع أصحابه إلى المدينة هروبًا من اضطهاد قريش، فمن واجبكم أن تستقبلوه بحفاوة وتعينوه بالخبز والماء.. أي أن تفتحوا بيوتكم لهم وتعتبروا خدمتهم بركةً ورحمة. وطبقًا لهذه النبوءة خرج النبي ﷺ مع أبي بكر من مكة تحت ظلال السيوف المسلولة في أيدي الأعداء الذين حاصروا بيته بنيّة قتله، ولكن الله تعالى أظهر آية قدرته فأخرج نبيه من بينهم من حيث لا يدرون.

كما تنبئ هذه النبوءة بوقوع حرب بين النبي ﷺ وأعدائه بعد الهجرة بسنة، فيُهزم فيها العدو وتدمّر قوة قريش كلها. وبالفعل وبعد سنة واحدة من هجرة النبي ﷺ تمامًا وقعت غزوة بدر التي انتصر فيها الإسلام انتصارًا ساحقًا، وفرّت قريش من ساحة القتال تاركة وراءها جثث قادتها وأبطالها. (البخاري: كتاب المغازي، باب دعاء النبي ﷺ على كفار قريش)

هذه النبوءة تتحدث عن الهجرة، أما نبوءة فتح مكة فقد أدلى بها موسى عليه السلام بالكلمات التالية: "فقال: جاء الرب مِن سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ مِن جبل فاران، وأتى مع عشرة آلاف قديس* وعن يمينه نار شريعة لهم." (التثنية ٣٣: ١-٢)

والنبي الموعود الذي سيظهر من جبال فاران بحسب هذه النبوءة التوراتية هو محمد رسول الله ﷺ نفسه، حيث تصرح هذه النبوءة أن محمدًا ﷺ سيدخل مكة مع جيش قوامه عشرة آلاف من صحابته، وفي يده نار شريعة. والمراد من نار شريعة أنها تطهّر القلوب، كما يمكن أن يراد بنار شريعة السيف بالنظر إلى مناسبة فتح

* الكلمات التي تحتها الخط هي بحسب ما ورد في الطبعة الأردية، إذ قد قد حرّفوها في بعض الطبعات الحديثة خاصة العربية منها. (المترجم)

مكة؛ والمعنى أن أهل مكة عندما يرفضون الخضوع لحكومة القرآن الكريم التي هي رسالة رحمة، وسيحاولون القضاء عليها، فإن الله تعالى سيناول محمدًا ﷺ سيفًا، فيخضع أهل مكة رؤوسهم أمام هذا السيف أخيرًا.

وكان علماء اليهود أيضًا على علم بهذه النبوءة التوراتية عن هجرة النبي ﷺ، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ لما خاف عند نزول أول وحي عليه، وذكر لزوجته خديجة – رضي الله عنها – ما وقع معه، ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ليخبره بالواقع، إذ كان الرجل خبيرًا بصحف الأنبياء السابقين. فلما قص عليه النبي ﷺ قصة نزول الوحي عليه قال: ليتني كنتُ شابًّا حتى أساعدك إذ يُخرجك قومك. ولما سمع النبي ﷺ قوله أخذته الحيرة إذ لم يكن قد أعلن دعواه بعد، وكانت قريش كلها تعتبره صدوقًا أمينًا وتُكرمه. فقال لورقةَ بن نوفل في حيرة: أوَ مُخرِجِيَّ هم؟ أي أقومي يخرجونني من بينهم؟ قال: نعم بكل تأكيد (البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي). مما يدل أن أذهان أهل الكتاب كانت قد تبادرت إلى هذه النبوءات الواردة في صحفهم، وكانوا على علم بأن نبيًا عظيمًا مثل موسى سيبعث بين العرب، وأن قومه سيُخرجونه من مدينته، وأنه سيفر إلى مكان آخر، وسينال هناك القوة، وسيفتح مكة ثانية.

فلما حان ظهور هذه النبوءة أخبر الله نبيَّه ﷺ وهو لا يزال بمكة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.. أي قد اقترب وقت هجرتك، وسيخرجك العدو من مكة فرحًا بأنه قد حقق غايته، ولكن ربك يبشّرك حتى قبل الهجرة أنه سيعود بك إلى هذه المدينة مرةً أخرى ليقضي على الفرحة الزائفة التي يبتهج بها العدو.

ثم يقول الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فكيف يمكن أن يفشل مَن يأتي بالهدى وينجح أهل الضلال؟ كلا، بل إن القرار النهائي بيد الله تعالى، فلا بد أن ينجح من يأتي بالهدى ويهلك أعداؤه.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٨﴾

التفسير: أي يا محمد، لقد كان من المستحيل أن يخطر ببالك أن ينـــزل عليك كتاب كامل من عند الله تعالى، وإنما هي رحمة ربك التي قضت أن يُنـــزل عليك، بحسب نبوءة موسى، كتابًا فيه علاج لكل ما تعانيه الإنسانية وهدى لـــبني نـــوع الإنسان كلهم إلى يوم القيامة. أما وقد أنـــزلنا هذا الكتاب الكامل، فمن واجبك، يا من تدعي باتّباع محمد، ألا تكون معينًا للكافرين.

لقد فسرتُ ﴿الكتاب﴾ بمعنى الكتاب الكامل لأن اللام في العربية يفيد الكمـــال أيضًا، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ﴾.. أي أن الحمد الكامل مختص بالله تعـــالى. إذًا، فالمراد من الكتاب هنا أنه الكتاب الكامل الذي يلبي كل حاجة روحانية للناس.

لا شك أن الخطاب هنا موجه إلى محمد ﷺ، ولكن من أساليب القرآن الكريم أنه يخاطب الرسولَ ﷺ في آيات كثيرة وهو يقصد أفراد أمته، وهنا أيضًا قال الله تعالى: ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ وهو يقصد أفراد أمته، ذلك لأن الله تعالى قد سبق أن قال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣-١٦٤). فما دامـــت عبادة النبي ﷺ وحياته وتضحياته كلها لله تعالى، وما دام ﷺ قد أعلـــن أنـــه أول المسلمين، وما دام لم يشرك قبل النبوة ولا بعدها، فكيف يُتصور أن يكون ظهـــيرًا للكافرين؟! فثبت أن الخطاب هنا موجه إلى أمته ﷺ حيث نبّههم الله تعالى أنه قـــد أنـــزل الكتاب الكامل وهيأ أسباب الخير والبركة للإنسانية جمعاء، فلم تبق هنـــاك حاجة إلى شريعة أخرى إلى يوم القيامة، فلا ينبغي لهم الآن أن يغفلوا عن معارف

هذا الكتاب ويتقاعسوا عن العمل به وإلا سيتسببون في انتشار الغي والضلال في الدنيا ويساعدون الكفار بأعمالهم. ذلك لأن المؤمن والكافر يسلكان طريقين مختلفين، حيث يخرج المؤمن ممسكًا بهذا الكتاب ويسعى لنشره، بينما يحاول الكافر محو هذا الكتاب والقضاء عليه. أما إذا ألقى المؤمن بهذا الكتاب وراء ظهره رغم ادعائه بالإيمان لأصبح مساعدًا للكافر. ولذلك يقول الله تعالى أيها المسلمون أمسكوا بهذا الكتاب بقوة دائمًا ولا تكونوا مساعدين للكفار في نواياهم الخبيثة، حيث يريدون محو اسم الله ورسوله من العالم، بل ثابروا على نشر تعليمه دائمًا.

ثم يوجه الله تعالى نصيحة أخرى للمسلمين فيقول: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ﴾.. أي لا شك أنه كتاب كامل ولا شريعة بعده، ولكن هذا لا يعني أن الآيات الإلهية أيضًا قد انقطع نزولها بعد القرآن الكريم، كلا بل سيستمر نزولها في كل زمن بأشكال مختلفة؛ فحينًا على شكل المجددين، وحينًا آخر بصورة المبعوثين، وحينًا ثالثًا على شكل المعجزات والآيات والتأييدات السماوية. فكلما نزلت عليكم آيات الله.. أي كلما أرى اللهُ تعالى وجهه في مرآة آياته المختلفة للنهوض بكم فلا يصدّنّكم شيء عن الإيمان بها. وهذا يماثل أمر النبي ﷺ للمسلمين بأنه إذا ظهر المسيح الموعود في الزمن الأخير وبلغ نداؤه آذانكم، فعليكم أن تلبّوا نداءه فورًا، وسارِعوا إليه ولو حبوًا على الثلج. (ابن ماجة: كتاب الفتن، باب خروج المهدي)

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾.. أي من واجبكم بعد الإيمان أن تشركوا الناس في هذه النعمة وتدعوهم للإيمان بهذا المبعوث الإلهي، وتقوموا بالدعوة والتبليغ على أوسع نطاق.

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾. وهذا الكلام أيضًا ليس موجهًا إلى النبي ﷺ بل إلى أمته، إذ لم يُشرك ﷺ قبل النبوة ولا بعدها قط.

إذًا، فالله تعالى قد حذر أمة النبي ﷺ أن إنكار آيات الله تعالى والتقصير في الدعوة هو نوع من الشرك، إذ لا ينكر آيات الله تعالى إلا الذي يسيطر على ذهنه أنه لو أعلن إيمانه عارضه الناس، كما لا يقصّر في الدعوة إلا الذي يخاف معارضة

الناس وإيذاءهم؛ وكلا الأمرين نوع من الشرك؛ ولذلك يوصينا الله تعالى أن لا نكون من المشركين، بل نؤمن بآيات الله بشجاعة، ثم نسعى لنشرها في العالم ببسالة، ونتطلع دائمًا إلى السماء غير خائفين من أهل الأرض لأن هذا أيضًا نوع من الشرك الخفي.

وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

التفسير: لقد نصح الله تعالى هنا المسلمين بأمر آخر بأن لا يدعوا مع الله شيئًا آخر باعتباره إلهًا إذ لا معبود سواه. لما كانت الآيات السابقة تنبه المسلمين إلى أهمية نشر الإسلام وكانت المسيحية هي الديانة التي ستتم المواجهة بينها وبين الإسلام بشدة ولفترة أطول، فقد ركز القرآن الكريم على تفنيد العقائد المسيحية الباطلة خاصة، ونبه المسلمين مرارًا أن خصمهم الأكبر هو المسيحيون الذين يؤمنون بآلهة ثلاثة، فمن واجبهم أن يتصدوا للمسيحية ولا يتخلوا عن وحدانية الله تعالى أبدًا؛ إذ لا إله إلا الله، وإنه أحد في ذاته وغير منقسم، فلا يحتاج إلى ابن ولا إلى روح القدس.

أتذكر أن الخليفة الأول ﷺ كان مريضًا ذات مرة وكنا جلوسًا عنده، ففتح عينيه فجأة وقال: لقد عُلّمت حالاً معنى قول الله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلا اللهُ﴾ حيث قيل لي إن الله تعالى وحده مفرد، أما ما سواه من الأشياء فكلها مركبة؛ فنظريةُ أزليةِ الروح والمادة باطلة لأن الروح والمادة ليستا مفردتين بل كلتاهما مركبتان، ويستحيل قياس ذات البارئ تعالى عليهما؛ ومن أجل ذلك فإن الله تعالى وحده أسمى من الفناء، إذ إن المفرد لا يفنى وإنما يأتي الفناء على الشيء المركب. لأن المراد من الفناء تفكُّك الأجزاء المركبة، والمفرد ليست له أجزاء، فلا إمكانية لتفكُّكه أبدًا. وهذا هو الدليل الذي يقدمه الله تعالى في الجزء التالي من الآية فيقول: ﴿كُلُّ

شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾.. أي كل شيء بما فيه جميع الآلهة المزعومة هالكٌ وهذا يدل على أن ليس ثمة شيء هو قائم بذاته بل هناك من يسانده على قيامه.

وترد هذه الآية ضمنيًا على أصحاب عقيدة وحدة الوجود الذين يقولون ليس في الدنيا سوى الله تعالى، وكل ما نراه إنما هو تجلٍّ لله تعالى. فيرد الله على هؤلاء قائلا: ألم يروا أن كل ما هو مخلوق عرضة للفناء، ولو كان كل شيء هو الله تعالى لما رأينا تغيُّرًا في أي شيء في الدنيا، فتغيُّر الأشياء دليل على أنها ليست جزءًا من الله تعالى، لأنه إذا كان بعض الشيء متغيرًا فلا بد من التسليم بتغيُّر الشيء كله.

أما قوله تعالى: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾ فبين فيه أنه لن ينجو من الفناء مَن توجَّهَ الله إليه. وقد أتى الله بهذا الاستثناء لأن البعض قد يخطئ فهم قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ فيظن أن الفناء سيشمل الجنة أيضًا، أو أن العلوم الروحانية التي أنزلها الله تعالى للدنيا في القرآن الكريم أيضًا ستتعرض للفناء، أو أن عباد الله المقربين أيضًا سيفنون للأبد، فدفعًا لهذا اللبس أضاف الله تعالى هنا قوله: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾ ليبين أن يد الفناء لن تنال بعض الأشياء، بل ستبقى محفوظة وهي التي تحظى بالعناية الإلهية. إن كل شيء سوى الله تعالى عرضة للفناء، ولا أحد من البشر في منجاة منه إلا الذين يتفانون في حب وجه الله تعالى وينالون حياة جديدة. لا شك أنهم لن ينجوا من الموت المادي، لكن أرواحهم ستنال الخلود الأبدي، لأنها اتصلت بالله تعالى، فصاروا أناسًا ينعكس وجه الله تعالى في وجودهم. وذلك كما ورد في الحديث القدسي: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أكون يده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولسانه الذي يتكلم به، ومن حاربه فإنما حارب الله تعالى، ومن أعزّه فإنما أعز الله تعالى (صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع). وهذه هي المكانة الروحانية التي قد أشار إليها المسيح الموعود عليه السلام في بيت شعر له بالأردية فقال:

سر سے میرے پاؤں تک وہ یار مجھ میں ہے نہاں
اے مرے بدخواہ کرنا ہوش کر کے مجھ پہ وار

(براهين أحمدية (أردو) الجزء الخامس، الخزائن الروحانية المجلد ٢١ ص ١٣٣)

أي عندما ترونني تقولون في أنفسكم أنه مرزا غلام أحمد ولا بأس في شن الحرب عليه، مع أنكم لا تحاربون مرزا غلام أحمد بل تحاربون الله، لأن الله تعالى قد حل بكياني من أخمص قدمي إلى قمة رأسي؛ فحذارِ أن تهاجمني.

كان الملوك في قديم الزمان يطلقون فحلاً ليرعى في البلاد بحرية مطلقة، وكان التعرض له بسوء يُعَدّ هجومًا على الملك. فكان الفحل يتجول ويرعى في البلاد حرًا، ولم يكن أحد يتجاسر على التعرض له، ولو قُتل الفحل في أرض قوم أغار عليهم الملك بجنوده. وبالمثل إن من عباد الله تعالى مَن يدخلون في أحبائه فيعتبر الهجوم عليهم هجومًا عليه (نور الدين بجواب ترك إسلام (أردو) ص ١٦٤). ومثاله قصة صالح عليه السلام في القرآن الكريم، حيث حذر صالح قومه من التعرض لناقته وإلا سيحل بهم عذاب من عند الله تعالى. وكان صالح عليه السلام يقصد في الواقع أنه كما صار هو لله تعالى فقد صار الله له أيضًا، وأن الله تعالى كما لا يتجلى على الدنيا بغير صالح كذلك لا يستطيع صالح أداء واجب الدعوة إلى الله بدون ناقته، فمن قتلها فلا يقتلها في الواقع وإنما يريد منع صالح من الدعوة، ومن قتل صالحًا فلا يقتله باعتباره شخصًا كباقي البشر، بل لأن وجه الله تعالى يتجلى من خلاله على الدنيا؛ إذًا، فالذين هجموا على ناقة صالح عليه السلام لم يهجموا عليها في حقيقة الأمر، وإنما هجموا عليه، ولذلك أنـــزل الله غضبه عليهم قائلاً: لقد قتلتم صالحًا حين قتلتم ناقته، وإذا قتلتم صالحًا فكأنما حاولتم قتلي.

فالحق أن هؤلاء القوم الروحانيين كأنما يتّحدون بوجود الله تعالى، ولذلك استثناهم الله تعالى هنا في قوله: ﴿إِلا وَجْهَهُ﴾، معتبرًا إياهم وارثين للحياة الخالدة.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ﴾ أن كل شيء فانٍ إلا الذي يتجلى فيه وجه الله دائمًا.. أي الذي يحقق غاية خلقه. لقد ثبت من ذلك أن كل ما في الكون يدل على وجود البارئ تعالى ويتراءى فيه وجهه. فبعض الأشياء تكشف رحمته، وبعضها تجلّي غضبه، وبعضها تُظهر ربوبيته، وبعضها حفظه، وبعضها قضاءه وقدره، وبعضها إنصافه.

ولو قيل: هل يتجلى وجه الله تعالى في الأشياء النجسة؟ فالجواب أن المراد من وجه الله تعالى ظهور صفاته إذ ليس لله تعالى وجه بالمعنى الحرفي. وأي شك في أن صفات الله تعالى تنكشف من خلال كل الأشياء، النجسة منها والطاهرة. لا شك أن الإنسان لا يقدر على أن يُظهر في وقت واحد إلا صفة واحدة أو بعضًا من صفاته، ولكن الله تعالى يتجلى بجميع صفاته في وقت واحد من غضب ورحمة وما إلى ذلك. فلا غرابة في تجلي وجه الله تعالى بآثار وصفات مختلفة في وقت واحد.

ثم يقول الله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.. أي أين تذهبون معرضين عن الله تعالى مع أن المُلك بيده وأنكم كلكم ماثلون أمامه بعد الموت. وبما أن كل شيء هالكٌ سوى الله تعالى، وما دام المرء عرضة للفناء، ولن يبقى إلا الذي حظي بوجه الله وعنايته، وما دام المُلك كله بيده تعالى، فَلِمَ يخاف الإنسان من المشركين؟ ولِمَ لا يوطد صلته بالله الذي يهبه حياةً خالدة وراحةً أبدية بعد الموت؟